المبحث السادس
عهد التفكك والضعف وانهيار الدولة السلجوقية

بعد وفاة السلطان ملكشاه تفككت الدولة السلجوقية وبدأت عوامل الضعف والانهيار تدب في أوصالها بين أبنائه وإخوته وأحفاده، فضعفت بالتالي سيطرة الدولة على مختلف أقاليمها، ومن الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف تنافس الأمراء على عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقساماً كبيراً وبصفة خاصة بين بركيارق الابن الأكبر لملكشاه وأخيه الأصغر محمود، وكان لكل منهما مؤيدون وموازرون حين كان يؤيد بركيارق نظام الملك قبل وفاته ومن بعده أبناؤه وأتباعه وأفراد أسرته في حين أن محمود كانت أمه تركان خاتون [1]، تقف إلى جانبه والوزير تاج الملك الشيرازي الذي خلف نظام الملك، وانقسم السلاجقة إلى فريقين متنازعين كل منهما يجاهر بالعداء للآخر وصولاً إلى عرش السلطنة وقد استطاعت تركان خاتون بالاتفاق والتدبير مع تاج الملك إخفاء نبأ وفاة السلطان ملكشاه حتى يتسنى لها أن ترتب أمورها وحتى تتم البيعة لابنها محمود الذي كان يبلغ من العمر وقتئذ أربع سنين وشهور [2]، وكان عند وفاة أبيه في بغداد، أما بركيارق فكان من الثالثة عشرة من عمره عندما مات أبوه وكان حينئذ في أصفهان [3].

أولاً: اعتراف الخليفة العباسي بمحمود بن ملكشاه سلطاناً:

كانت الظروف في صالح محمود في أول الأمر، وقد بايعه العسكر لأمور:

أحدها: أن أمه " تركان خاتون " كانت مستولية ومسيطرة على الأمور في أيام السلطان ملكشاه، وكانت محسنة للأجناد ومن ثم قدموا ولدها وبايعوه.

والثاني: أنها كانت من نسل الملوك الترك، وقيل : إنها من نسل أفراسياب.

والثالث: أن الأموال كانت بيدها ففرقتها فيهم فبايعوه وأخذوه معهم وعادوا به إلى أصفهان [4]، وقد بعثت تركان خاتون إلى الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله في بغداد تطلب منه أن يعهد بالسلطنة لابنها محمود بن ملكشاه وأن تكون الخطبة باسمه، ولكن الخليفة لم يجبها إلى ما طلبت ورد عليها قائلاً: إن ابنك طفل صغير وهو لا يليق بالملك. غير أن الخليفة العباسي ما لبث أن اضطر إلى الاعتراف به سلطاناً عقب وفاة أبيه [5]، ومما قيل في هذا الصدد أن الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله اضطر إلى الاعتراف بسلطنة محمود؛ لأن ملكشاه كان يحتفظ بابنه الأمير جعفر[6]، عنده ليهدد به الخليفة وقد كان برفقة جده السلطان ملكشاه بعد وفاة والدته خاتون وكان السلطان ملكشاه عازماً على

(1) هي ابنة طغراج الملك وهم من نسل أفراسياب وهم الأيلخانيون حكام بلاد ما وراء النهر وتركستان وباشرت أمور الدولة بعد ملكشاه وكانت حازمة قادت الجيوش بنفسها.

(2) مرآة الزمان (221/1)، السلاجقة في التاريخ والحضارة ص 45.

(3) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 28.

(4) المصدر نفسه ص 28.

(5) مرآة الزمان (221/1، 223).

(6) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 29.

توليته الخلافة بدلاً من أخيه المسترشد الذي ولي عهد الخليفة المقتدي بأمر الله، ولكن وفاة السلطان ملكشاه غير مجرى الأمور، وعاد أبو الفضل جعفر إلى والده المقتدي بعد وفاة جده السلطان ملكشاه [1]. فخشي الخليفة من تكرار التجربة مع سلاطين السلاجقة؛ ولذلك وافق على ما رأته خاتون من إنفاذ الأمير جعفر إلى بغداد لقاء اعتراف الخليفة بسلطنة ولدها محمود[2]، ومهما يكن من أمر، فإن الخليفة العباسي منزوع النفوذ والسلطان ولا يملك القدرة على الاعتراض.

وفي 22 شوال سنة 485هـ، أقيمت الخطبة لمحمود في مساجد بغداد ومنحه الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله الخلع السلطانية ولقبه " ناصر الدنيا والدين " [3]، واشترط الخليفة العباسي على تركان خاتون أن تكون السلطنة لولدها محمود، والخطبة له، بينما يختص الأمير أنر [4]، بتدبير الجيوش ورعاية البلاد، ويختص تاج الملك بجباية الأموال، وترتيب العمال، إلا أن تركان خاتون في بداية الأمر كانت غير موافقة على هذه الشروط، وكان أبو حامد الغزالي يقوم بدور الوساطة بين الخليفة العباسي وبين أم محمود، وبعد ذلك أقنع أبو حامد الغزالي تركان خاتون بالموافقة على شروط الخليفة، ومن ثم وافقت على تلك الشروط[5]. ثم أرسلت تركان خاتون أحد أتباعها ليقبض على بركيارق، وبالفعل تم القبض على بركيارق وإيداعه السجن. من قبل أتباعها لكي لا يكون طليقاً ومن ثم يصبح محمود في مأمن منه، غير أن الأمر لم ينته عند هذا الحد الذي تخيلته تركان خاتون بأنه لو تم القبض على بركيارق لأصبحت في مأمن من كل محاولة لمنازعة ابنها في الحكم، فأتباع نظام الملك ومؤيدو بركيارق في أصفهان تمكنوا من إخراجه من سجن أصفهان ونصبوه سلطاناً في أصفهان وذلك نكاية في تركان خاتون وفي تاج الملك الشيرازي لموقفها المعادي لنظام الملك قبل موت ملكشاه، وهكذا وجد سلطانان في وقت واحد محمود في بغداد وبركيارق في أصفهان، ومن ثم أصبحت المنازعة بينهما على عرش السلطنة أمراً حتمياً[6].

1- القتال على عرش السلطنة بين بركيارق وتركان خاتون: كانت تركان خاتون هي البادئة بالنزاع وبالهجوم فسارت من بغداد إلى أصفهان مع الجيش ومعها ابنها السلطان محمود والوزير تاج الملك الشيرازي، ولما قاربت تركان خاتون أصفهان خرج منها بركيارق ومن يؤيده من النظامية متجهين نحو الري فأرسلت تركان خاتون الجيش إلى قتال بركيارق، والتقى الجيشان من بروجرد [7]، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة 485هـ وجرت الحرب بينهم، واشتد القتال وانحاز جماعة من عسكر تركان خاتون إلى بركيارق، فلحقت الهزيمة بتركان خاتون

(1) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 29.
(2) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ص 99.
(3) المنتظم (62/9، 63) دولة السلاجقة لحسنين ص 75.
(4) هو من أمراء عسكر تركان خاتون والدة محمود.
(5) الكامل في التاريخ 341/06).
(6) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 30.
(7) المصدر نفسه ص 30.

وابنها وعادوا إلى أصفهان وتبعهم بركيارق وحاصرهم فيها[1]، واتفق الطرفان على الصلح بشرط أن تدفع تركان خاتون خمسمائة ألف دينار لبركيارق، وأن تكون بلاده أصفهان، وبلاد فارس لتركان خاتون وابنها، أما باقي البلاد فتكون لبركيارق وهو السلطان [2].

وفي شهر محرم من سنة 486هـ نشبت معركة عنيفة بين المعسكرين: المعسكر الأول لبركيارق، والمعسكر الثاني لمحمود وأمه تركان خاتون، وكانت الغلبة والكفة الراجحة للمعسكر الأول بسبب مساعدة أتباع نظام الملك وبسبب انحياز جماعة من الأمراء الذين يتبعون المعسكر الثاني لتركان خاتون وابنها محمود منهم الأمير ورجحت كفة بركيارق وقوي أمره والتقى العسكران مرة أخرى وانهزم عسكر تركان خاتون وابنها، ومن ثم هربت إلى مدينة أصفهان وتحصنت بها، وفر الوزير تاج الملك الشيرازي هارباً إلا أن النظامية قبضوا عليه وأخذوه وانتهى الأمر بقتله في المحرم سنة 486هـ.

وبعد أن لاذت تركان خاتون بالفرار إلى أصفهان، وقوى بركيارق بمساعدة النظامية تتبع تركان خاتون وحاصرها في أصفهان، ولكن سرعان ما عدل عن ذلك حتى يجد الفرصة سانحة للاستيلاء على أصفهان، فتوجه إلى همذان وسعى جاهداً في تكوين جيش قوي العتاد كبير العدد حتى يستطع به الاستيلاء على أصفهان، وقد تم له ما أراد حيث توجه بجيشه الذي أعده كما يريد إلى أصفهان وتم فتحها وقضى على تركان خاتون وأنصارها، واعترافا من بركيارق بجميل النظامية عليه اتخذ عز الملك الحسين بن نظام الملك وزيراً له [3]، وكان مقيماً في أصفهان عند وقوع هذه الأحداث [4].

ولقد اتفقت تركان خاتون مع خال بركيارق إسماعيل ياقوتي [5]، ووعدته بالزواج على أن يتقدم لمحاربة بركيارق، وبالفعل توجه إسماعيل ياقوتي على رأس جيشه لمحاربة ابن أخته والتقى الجيشان في رمضان 486هـ، حيث كان النصر حليف بركيارق، أما إسماعيل ياقوتي فقد أسر وقتل في نفس السنة المذكورة [6]، وفي سنة 487هـ سار بركيارق إلى أصفهان وفي بداية الأمر لم يسمح له بالدخول إليها، وبعد ذلك سمحوا له بالدخول خديعة كي يتم القبض عليه وعندما قارب أصفهان خرج إليه محمود فلقيه ودخل البلد وأحاطوا به[7].

2- وفاة محمود بن ملكشاه: ولقد حُمَّ وجدر محمود ومات في شوال من نفس العام، وكان ذلك بمثابة الفرج بعد الشدة وجلس بركيارق للعزاء في أخيه محمود، ثم إن بركيارق جدر بعد أخيه ولكنه شفى، ولما تم شفاؤه كاتب وزيره مؤيد الملك أمراء العراق وخراسان ومن ثم عادوا إلى

(1) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن (38/4).
(2) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 31.
(3) المصدر نفسه ص 33.
(4) المصدر نفسه ص 33.
(5) العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 602.
(6) الدولة السلجوقية في عهد سنجر ص 33.
(7) المصدر نفسه ص 33.

بركيارق، فكثر جنده وأصبح شأنه عظيماً[1].

ثانياً: انتصار بركيارق واعتراف الخليفة العباسي به سلطانا للسلاجقة سنة 487هـ:

توجه بركيارق إلى بغداد في السابع عشر من ذي القعدة عام 486هـ، وكان برفقته وزيره الجديد عز الملك الحسين بن نظام الملك، حيث طالب الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله بأن يعترف به سلطاناً على السلاجقة، فما كان من الخليفة العباسي المقتدى بأمر الله إلا أن أجابه في طلبه واعترف به سلطاناً على السلاجقة في الرابع عشر من المحرم سنة 487هـ، ولقبه بركن الدين[2]، ونودي بركيارق سلطناً ببغداد في الرابع عشر من المحرم سنة 487هـ / وخطب له على المنابر وشاء القدر أن توفي الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله في الخامس عشر من المحرم سنة 487هـ، وخلفه ابنه وولي عهده أبو العباس أحمد الذي لقب المستظهر بالله الذي ما كان منه إلا أن اعترف أيضاً ببركيارق سلطاناً للسلاجقة، كما بايعه بركيارق بالخلافة، وظل بركيارق في بغداد حتى ربيع الأول من سنة 487هـ ثم سار عنها متجها إلى الموصل [3].

1- النزاع بين بركيارق وعمه تتش على عرش السلطنة 488هـ : لم يقتصر النزاع بين بركيارق وأخيه الأصغر محمود فحسب، بل ظهر منافس آخر له ينازعه على عرش السلطنة وهو عمه تاج الدولة تتش[4]، الذي كان والياً على دمشق وما جاورها من بلاد الشام، والذي ولاه البلاد أخوه السلطان ملكشاه، ولما علم بوفاة أخيه رأى أنه أحق بأمور السلطنة من أبناء أخيه؛ لأن أكبرهم بركيارق لم يكن يزيد عن الثانية عشرة من عمره، إضافة إلى النزاع بينه وبين أخيه الأصغر محمود على السلطنة، وقد بدأ تتش في السعي للسيطرة على السلطنة وراسل تركان خاتون أرملة أخيه قبل وفاتها واتفق معها على الزواج وتواعد على اللقاء والتعاون، فقدمت إليه فماتت في الطريق فتفرق عساكرها وانضم أكثرهم إلى بركيارق[5] ومضى تتش في مشروعه، فاستطاع أن يغتصب حلب من آقسنقر ويمد نفوذه على أنطاكية ويخطب لنفسه بالسلطنة فيها سنة 486هـ، كما استطاع أن يستولى على نصيبين ويقتل من أهلها عدداً كبيراً ثم يمد نفوذه على الموصل وميافارقين وديار بكر ويتوجه إلى أذربيجان، وكان نفوذ بركيارق في ذلك الوقت قد قوي، فسار لملاقاة عمه الثائر المغتصب، فلما التقى الجمعان، انضم آقسنقر بجيوشه إلى بركيارق كما تفرقت جيوش تتش فانهارت قوته ولم يستطيع مواجهة جيوش بركيارق فقفل راجعاً إلى بلاد الشام، وقد أقام آقسنقر عند بركيارق فترة عاد بعدها إلى بلاده ليكون عيناً على تتش[6]، ولم تهدأ نفس تتش بعد هذه الهزيمة، إذ صمم على الانتقام من آقسنقر، وقد استمر النزاع بين بركيارق وعمه تتش إلى أن تمكن بركيارق من إلحاق الهزيمة به

(1) المصدر نفسه ص 34.
(2) الدولة السلجوقية في عهد سنجر ص 36.
(3) المصدر نفسه ص 37.
(4) المصدر نفسه ص39.
(5) سلاجقة الشام والجزيرة ص 101.
(6) تاريخ الدولة الاتابكية، ملوك الموصل ص 24، 25.

في النهاية سنة 88هـ وقيل: إن قتله كان على أيدي جماعة من أنصار آقسنقر كانوا قد أقسموا على أن يثأروا لـه [1].

وقد استمرت البلاد الشامية وأتابكية الموصل مسرحاً لحروب كثيرة بين صغار الأمراء، وبيئة صالحة لدسائس البيت السلجوقي في بغداد حتى استطاع عماد الدين زنكي ونور الدين محمود من بعده أن يوحدا هذه البلاد من جديد ويخضعاها لسلطة واحدة [2]. ويجب أن نشير هنا إلى أن هذا التفكك الذي حدث في قلب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملة الصليبية الأولى على بلاد الشام، إذ لم تكن هناك القوة الإسلامية التي تستطيع أن تقف في وجهها، ففضلاً عن المنازعات التي قامت بين رضوان ودقاق ابني تتش فإن هذه البلاد كانت مسرحاً لنشاط الفاطميين في مصر [3]، كما سيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله. وهكذا نجد أن النزاع الذي قام بين أفراد البيت السلجوقي في هذا الجزء من الشرق الإسلامي قد أدى إلى انتزاع الصليبيين معظم بلاد الشام من المسلمين [4].

2- منافسة أرسلان أرغوت بركيارق على السلطنة: ظهر منافس آخر للسلطان بركيارق ينازعه في أمور السلطنة وهو عمه أرسلان أرغون، الذي كان مقيماً في بغداد عند أخيه ملكشاه، ولما توفي ملكشاه وحدث نزاع بين بركيارق وأخيه الأصغر محمود على عرش السلطنة توجه أرسلان أرغون إلى نيسابور، وأراد أن يفرض نفوذه عليها ولكن امتنع أهلها عن تسليمها لـه فسار منها إلى مرو حيث قام شحنتها بتسليمها لـه وبذلك قوى نفوذ أرسلان أرغون بمساعدته وتوسعت مملكته وامتد سلطانه على بلخ وترمذ ونيسابور وسائر خراسان، وكاتب أرسلان أرغون ابن أخيه السلطان بركيارق يخبره بأنه تم بسط نفوذه وسلطانه على الأقاليم التي كانت لجده داود، وأنه راضٍ كل الرضى بما سيطر عليه من هذه الأقاليم ولن يتعداها، أو يطمع في غيرها من أقاليم أخرى، إضافةً إلى أنه لن يخرج عن طوعه وأنه منفذ لما يأمره به، وكان السلطان بركيارق آنذاك مشغولاً بأخيه محمود، فأظهر موافقته على ما كاتبه به عمه أرسلان أرغون، بينما لم يكن في حقيقة الأمر موافقاً على ذلك ومالبث أن سير عمه الآخر بورى برس بن ألب أرسلان لقتال أرسلان أرغون إلى حدود خراسان، والتقى العسكران فانهزم أرسلان أرغون وعاد إلى بلخ، حيث جمع الكثير من الأجناد وانضمت إليه حشود كبيرة من التركمان، وحينما شعر بقوته سار إلى مرو وفتحها عنوة بعدما خرب أسوارها وقتل الكثير من أهلها، وسار إليه بورى برس بقصد قتاله، واجتمع إليه العسكران عند مرو فانهزم بوري برس وأسره واعتقله أخوه أرسلان أرغون في ترمذ، وهناك تم قتله، وبعد ذلك استبد أرسلان أرغون في حكم خراسان فهدم كل حصن فيها وخرب البلاد وظلم العباد، وكان أرسلان أرغون شديد الهيبة والظلم لغلمانه، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً، مما دفع إلى

(1) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 53.
(2) تاريخ الدولة الأتابكية، ملوك الموصل ص 30 - 37.
(3) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 54.
(4) المصدر نفسه ص 54.

قتله سنة 490هـ[1].

وقد أرسل السلطان بركيارق جيشاً إلى خراسان لمحاربة عمه أرسلان أرغون ولم يكن قد علم بوفاة عمه على يد أحد غلمانه، وجعل أخاه معز الدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه على خراسان، الذي ولد بمدينة سنجر عام 479هـ وهي إحدى مدن الجزيرة والتي سمي على اسمها على عادة الأتراك، على رأس الجيش وأرسل معه الأمير قماج ليعاونه حتى يقضيان على فتنة عمه وكان بركيارق قد أصدر أمراً بتولية سنجر حاكماً على خراسان حينما علم باستيلاء عمه عليها [2]، وبعد أن حاربه عمه سار بركيارق على رأس جيش إلى آخر إلى خراسان، وقبل أن يصل إلى خراسان علم بمقتل عمه، ومن ثم دانت له بلاد خراسان، ثم أجلس أخاه سنجر على عرش خراسان سنة 490هـ ثم رجع إلى بغداد، وقد تولى سنجر الحكم على بلاد خراسان في عهد أخيه السلطان بركيارق لمدة عشرين عاماً وكان والياً على بلاد ما وراء النهر ومن ثم فقد سمى ملك المشرق[3].

ثالثاً: النزاع بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر على عرش السلطنة:

عاد النزاع على عرش السلطنة من جديد داخل البيت السلجوقي مرة أخرى بين بركيارق وأخويه محمد وسنجر، وقد استمر هذا النزاع خمس سنوات من عام 492هـ حتى 497هـ، وليس من المهم أن نذكر أن محمداً استطاع أن يدخل بغداد وأن يقيم الخطبة لنفسه فيها سنة 492هـ بموافقة الخليفة المستظهر العباسي الذي خلع عليه الخلع والهدايا، وكان بركيارق في هذه الأثناء مريضاً [4]، ثم استمرت الحرب مع محمد طوال عهد بركيارق الذي تمكن من إعادة الخطبة لنفسه في بغداد، ومن المهم أن نذكر أن الخليفة هو الذي كان يسمح بإعادة الخطبة لكل من دخل بغداد من هذين السلطانين المتنازعين وهذا يدلنا على مقدار ما وصلت إليه الخلافة من ضعف ويلاحظ أن سنجر بن ملكشاه كان قد انضم إلى أخيه محمد في صراعه مع بركيارق، ويرجع السبب في ذلك لكونهما كانا ولدين لأم واحدة [5]، وقد انتهت الحرب بين محمد وبركيارق سنة 497هـ، إذ عقد الصلح بين الطرفين في هذه السنة، يقول السيوطي: إن الحروب لما تطاولت بينهماً وعمّ الفساد وصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والسلطنة مطموعاً فيها، وأصبح الملوك مقهورين بعد أن كانوا قادرين دخل العقلاء بينهما في الصلح وكتبت العهود والإيمان والمواثيق [6]. ولقد تقرر أن يكون للصلح قواعد نوردها فيما يلي:

(1) تاريخ دولة آل سلجوق ص 238، الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 50.
(2) السلاجقة في التاريخ والحضارة ص 48.
(3) العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 610.
(4) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 55 وفيات الأعيان (61/2).
(5) تاريخ الخلفاء ص 283 الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 55.
(6) تاريخ الخلفاء ص 283.

- ألا يعترض بركيارق أخاه محمد في الطبل [1].
- ألا يذكر اسم بركيارق بجانب اسم محمد في البلاد التي صارت لـه.
- أن يكون الاتصال بينهما عن طريق الوزراء.
- ألا يعترض أحد العسكرين الآخر في داخل حدود كل منهما.
- أن يمتد نصيب محمد من نهر إسبيندروذ [2]، إلى باب الأبواب [3]، وديار بكر والجزيرة والموصل والشام، ويكون لـه في العراق البلاد التي كانت تحت حكم سيف الدولة صدقة بن مزيد[4]وأرسل بركيارق إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله الرسل حاملة شروط وقواعد الصلح بينه وبين أخيه محمد، فما كان من الخليفة إلا أن أجابه وأمر بإقامة الخطبة لبركيارق سنة 497هـ [5]. وقد عين بركيارق سنجراً والياً على خراسان، لما يتمتع به من هيبة كبيرة وخبرة بقواعد وقوانين السلطنة والحكم في البلاد مما جعل حكمه يستمر واحد وستين عاماً، منها عشرون عاماً ملكاً على خراسان من قبل أخيه بركيارق، وواحداً وأربعين عاماً سلطاناً للسلاجقة [6]، ومن هنا يتبين أنه بعدما طالت الحروب والنزاعات من أبناء السلطان ملكشاه، وما ترتب على ذلك من ويلات لتلك الحروب من سفك الدماء، والدمار والخراب الذي عم البلاد وانتشر بسبب النزاع على عرش السلطنة، مما أدى إلى ضعف وتفكك السلاجقة أدرك الأخوة المتصارعون ما عم البلاد من خراب فتداعوا إلى الصلح [7].

رابعاً: وفاة بركيارق وتولى محمد بن ملكشاه السلطنة:

توفى السلطان بركيارق في سنة 498هـ ببروجرد [8] على إثر مرض أصابه، وقد عين السلطان بركيارق قبيل وفاته ابنه ملكشاه ولياً لعهده، وكان طفلاً صغيراً لم يبلغ الخامسة من عمره آنذاك ولذلك عين الأمير أياز[9]، أتابكا لـه، وسار الأمير أياز وبرفقته ملكشاه بن بركيارق إلى بغداد ونال موافقة الخليفة العباسي المستظهر بالله بإقامة الخطبة لـه في بغداد ولقبه بلقب جلال الدولة [10]، وكان السلطان محمد وقتذاك توجه إلى الموصل يخبره بأن الموصل من الأقاليم التي دانت لـه بعد الصلح بينه وبين أخيه السلطان بركيارق، وما كان من جكرمش إلا أن رفض تسليمها إياه مدعياً بأن ما وصل إليه من كتب السلطان بركيارق بعد الصلح تأخره ألا يسلمها إلى غيره، ولما وصل الخبر

(1) كان من شعائر السلطنة أن تضرب الطبلخانات للسلطان خمس مرات في اليوم انظر الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 65.
(2) نهر إسبيندروذ: يطلق عليه النهر الأبيض وهو على بعد عدة فراسخ من همذان.
(3) باب الأبواب: تقع في أقصى شمالي بلاد شروان وهي ميناء على بحر قزوين.
(4) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 66.
(5) تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (41/4، 42).
(6) السلاجقة في التاريخ والحضارة ص 114.
(7) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 66.
(8) بروجرد: مدينة حسنة عرضها أكثر من طولها بنحو نصف فرسخ من مدن إقليم الجبال.
(9) من مماليك السلطان ملكشاه وقد جعله بركيارق أتا بكالابنه.
(10) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ص 204.

بوفاة السلطان بركيارق إلى جكرمش لم يكن أمامه مفر من أن يبذل الطاعة للسلطان محمد، وأن يسلم الموصل لـه[1]، وقد أسرع السلطان محمد إلى بغداد بعد أن أقيمت الخطبة بها لملكشاه بن بركيارق ودخلها من الجانب الغربي وخطب لـه في مساجد هذا الجانب، بينما كانت الخطبة قائمة باسم جلال الدولة ملكشاه بن بركيارق في الجانب الشرقي ومن ثم أصبح هناك سلطانان في وقت واحد [2]، واستشار الأتابك أياز أتباع السلطان ملكشاه بن بركيارق فيما يفعله مع السلطان محمد، فاستقر بهم الرأي على قتاله ومنعه من السلطنة ولكن وزيره الصفي أبا المحاسن أشار عليه بالصلح مع السلطان محمد وتسليمه السلطنة، فأرسل أياز وزيره الصفى أبا المحاسن إلى السلطان محمد طلباً للصلح، وتسليمه السلطنة، واعتذاره عما بدر منه، وطلب العهد والأمان لملكشاه بن بركيارق ولنفسه وللأمراء الذين معه وأجاب السلطان محمد الأمير أياز إلى ما التمسه منه [3]، وكان الذي أخذ البيعة بالصُّلح الكيا الهّراسي مدرس النظامية[4]، فهذا الفقيه لم يقف أمام تلك الصراعات الدامية التي كانت تهدد كيان الدولة الإسلامية آنذاك موقف المتفرج، وإنما كان لـه دور كبير في فض كثير من المنازعات القائمة بين الحكام والملوك في بعض البلدان الإسلامية حرصاً على تماسك المسلمين ووحدتهم، وقد نجح بالفعل إلى حد كبير في الصلح بين ملكشاه ابن بركيارق وعمه السلطان محمد [5]، وأصبحت السلطنة دون منازع وخطب لـه في سنة 498هـ، يقول ابن كثير في من توفي من الأعيان عام 498هـ: بركيارق بن ملكشاه ركن الدولة السلجوقي، خطب لـه ببغداد سِتَّ مرات وعزل عنها ست مرات وكان عمره يوم مات أربعاً وعشرين سنة وشهوراً وقام من بعده ولده ملكشاه، فلم يتّم أمره بسبب منازعة عمه محمد لـه [6] وقال الذهبي: وكان بركيارق شاباً شهماً شجاعاً لعّاباً، فيه كرم وحلم، وكان مدمناً، للخمر، تسلطن وهو حدث، لـه ثلاث عشرة سنة، فكانت دولته في نكد وحروب بينه وبين أخيه محمد، يطول شرحها وهي مذكورة في الحوادث... مات بعلة السُّل والبواسير، وكان في أواخر دولته قد توطَّد ملكه وعظم شأنه ولما احتضر، عهد بالأمر من بعده لابنه ملكشاه بمشورة الأمراء، فعقدوا لـه، وهو ابن خمسة أعوام[7] وقد تولى محمد بن ملكشاه وحكم أكثر من ثلاثة عشر عاماً عمت الفوضى في أثنائها جميع أنحاء الدولة فضعف الشرق الإسلامي أمام الصليبيين في بلاد الشام وأمام القوات الأخرى المعادية في جوف الدولة الإسلامية وأهمها الطائفة الإسماعيلية[8]. وانقسمت الدولة السلجوقية بعد وفاة بركيارق وأصبح كل جزء من الدولة السلجوقية تابعاً لوالٍ مستقل، فالأجزاء الشرقية تخضع لحكم سنجر، والأجزاء الشمالية تخضع لحكم أخيه محمد وبلاد الشام تحت سيطرة أبناء تتش، وآسيا الصغرى تحت حكم أبناء سليمان بن قتلمش وتفككت وحدة الدولة عما كانت عليه في عهد السلاجقة

(1) دول الإسلام (227).
(2) الحياة السياسية ونظم الحكم في العراق ص 205.
(3) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 70.
(4) البداية والنهاية (188/16).
(5) دور الفقهاء والعلماء المسلمين في الشرق الأقصى في الجهاد ضد الصليبيين ص 83.
(6) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.
(7) سير أعلام النبلاء (196/19).
(8) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.

العظام[1].

1- موعظة رهيبة بليغة يحضرها السلطان محمد بن ملكشاه: في سنة 501هـ من يوم الجمعة زار السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي مشهد الإمام أبي حنيفة، وكان معه الوزير أحمد نظام الملك، والبرسقي صاحب الشرطة ببغداد، وجماعة من الأمراء والأعيان، ثم أدى صلاة الجمعة، في جامع المهدي بالرصافة[2]، وقد خطب الجمعة الشيخ أبو سعد المعمّر بن علي، فكانت خطبته رهيبة وقد وجّه الكلام فيها إلى الوزير أحمد نظام الملك قال: الحمد لله ولي الإنعام، وصلى الله على من هو للأنبياء ختام، وعلى آله سُرج الظلام، زينه الله بالتقوى، وختم أعماله بالحسنى وجمع له بين خير الآخرة والدنيا. معلوم يا صدر الإسلام أن آحاد الرعية من الأعيان، مخيَّرون في القاصد والوافد، إن شاءوا وصلوه وإن شاءوا فصَلوه، فأمّا من توشَّح بولائه، وشرشح لآلائه، فليس مخيراً في القاصد والوافد لأنَّ من هو على الحقيقة أمير، فهو في الحقيقة أجير، قد باع نفسه وأخذ ثمنه، فلم يبق له من نهاره، ما يتصرَّف فيه على اختياره، ولا له أن يصلي نفلاً، ولا يدخل معتكفاً دون التبتّل، لتدبيرهم، والنظر في أمورهم؛ لأن هذا فضل، وهذا فرض لازم وأنت يا صدر الإسلام، وإن كنت وزير الدولة، فأنت أجير الأمة استأجرك جلال الدولة بالأجرة الوافرة، لتنوب عنه في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا ففي مصالح المسلمين، وأما في الآخرة فلتجب عند ربّ العالمين، فإنه سيقفه بين يديه، ويقول له: ملكتك البلاد، وقلّدتك أزمّة العباد فما صنعت في إقامة البذل وإفاضة العدل؟ فلعله يقول: يا رب اخترت من دولتي شجاعاً عاقلاً حازماً، وسمَّيته قوام الدين نظام الملك، وها هو قائم في جملة الولاة وبسطت يده في السوط والسيف والقلم، ومكنتّه في الدينار والدرهم فأسأله يا ربّ ماذا صنع في عبادك وبلادك؟ أفتحسن أن تقول في الجواب: نعم تقلّدت أمور البلاد وملكت أزمّة العباد، ودنوت من تلقائك، اتخذت الأبواب والنّواب، والحجاب والحُجّاب، ليصدّوا عني القاصد، ويردّوا عني الوافد فاعُمر قبرك كما عمّرت قصرك، وانتهز الفرصة، ما دام الدهر يقبل أمرك، فلا تعتذر فما ثمّ من يقبل عذرك. فهذا ملك الهند، وهو عابد صَنَم، ذهب سمعه، فدخل عليه أهل مملكته يعزّونه في سمعه فقال: ما حزني لذهاب هذه الجارحة من بدني ولكن لصوت مظلوم كيف لا أسمعه فأغيثه! ثم قال إن كان ذهب: سمعي، فما ذهب بصري، فليؤمر كل ذي ظلامة أن يلبس أحمر، حتى إذا رأيته عرفته وأنصفته، وأنت يا صدر الإسلام أحق بهذه المأثرة، وأولى بهذه المعدلة، وأحرى من أعدّ جواباً لتلك المسألة، فإنّه الله الذي تكاد السموات يتفطرن منه، في موقف ما فيه إلا خاشع أو خاضع، أو مقنع ينخلع فيه القلب، ويحكم فيه الرب، ويعظم الكرب أو يشيب الصغير والكبير ويُعزَل الملك والوزير {**يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى**} [الفجر: 23] {**يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**}. وقد استجلبت لك الدعاء وخلّدت لك الثناء مع براءتي من التهمة، فليس لي في الأرض ضيعة ولا قرية ولا

(1) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 56.

(2) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 71.

بيني وبين أحد خصومه، ولا بي بحمد الله فقر ولا فاقة [1]، فلما سمع الوزير أحمد نظام الملك هذه الموعظة بكى بكاء شديداً، وأمر لـه بعد الصلاة بمائة دينار، فأبى أن يأخذها الخطيب. وقال: أنا في ضيافة أمير المؤمنين الخليفة، ومن يكون في ضيافة الخليفة يقبح أن يأخذ عطاء غيره. فقال لـه الوزير: فضّها على الفقراء. فأجابه الشيخ الخطيب: الفقراء على بابك أكثر منهم على بابي، ولم يأخذ شيئاً [2]، وبعد انتهاء الصلاة، اجتمع الفقهاء وبحضرة السلطان محمد بن ملكشاه فقال لهم: هذا يوم قد انفردت فيه مع الله تعالى، فخلّوا بيني وبين المكان فصعدوا إلى أعاليه، فأمر غلمانه بغلق الأبواب وأن لا يمكّنوا الأمراء من الدخول إليه، وقام يصلي ويدعو ويخشع وأعطاهم خمسمائة دينار، وقال: اصرفوا هذه في مصالحكم وادعوا لي [3].

2- نصيحة الإمام الغزالي لمحمد بن ملكشاه: عندما علم الإمام أبو حامد الغزالي أن السلطان محمد ابن ملكشاه تولى الحكم، أرسل لـه كتاباً يخاطبه فيه قائلاً: اعلم يا سلطان العالم أن بني آدم طائفتان: طائفة غفلاء نظروا إلى مشاهد حال الدنيا، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ولم يتفكروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخير نصب أعينهم لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم وكيف يخرجون من الدنيا، ويفارقونها وإيمانهم سالم وما الذي ينزل من الدنيا في قبورهم وما الذي يتركون لأعاديهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله [4]. ولا شك أنها نصيحة غالية ودرس عظيم فقد نصح الإمام الغزالي محمد بن ملكشاه ونصحه بعدم الغفلة والاغترار بمباهج الدنيا ونسيان الآخرة والأعمال الصالحة التي تنفع صاحبها في آخرته ظنناً منه بامتداد العمر، موضحاً لـه أنه من العقل ألا يتجاهل الإنسان أن الأجل قريب وأنه لا بد أن يسرع بعمل الأعمال الصالحة ويؤدي ما عليه لله تعالى حتى يخرج من الدنيا كامل الإيمان، فالإنسان لن يأخذ معه إلى قبره إلا العمل الصالح، ثم ينصحه الإمام الغزالي نصيحة غير مباشرة يتفجر من كل حرف فيها الحث على جهاد الأعداء، فيخبره أن العقلاء يخططون ويدرسون ما الذي يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله، أي يجب أن يتخذوا جبال أعدائهم أعمالاً من شأنها أن تظل مؤثرة فيهم حتى بعد أن يموت هؤلاء العقلاء، وتظل آثار أعمالهم في ذاكرة أعدائهم، فكان لهذه النصيحة العظيمة رد فعل كبير عند السلطان محمد بن ملكشاه، فبمجرد أن انفرد بالسلطنة بدأ في بعث حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين [5]سيأتي تفصيل ذلك في محله بإذن الله تعالى.

وقد جاءت روايات أخرى في نصيحة الإمام الغزالي ذكر فيها: ويجب أن تعلم أن صلاح الناس في حسن سيرة الملك، فينبغي للملك أن ينظر في أمور رعيته، ويقف عند قليلها وكثيرها وعظيمها وحقيرها، لا يشارك رعيته في الأفعال المذمومة، ويجب احترام الصالحين، وأن يثبت على الفعل

(1) المنتظم (155/9، 73 - 174) تاريخ الأعظمية ص 261.
(2) تاريخ الأعظمية ص 261نقلاً عن المنتظم.
(3) تاريخ الأعظمية ص 261 نقلاً عن المنتظم.
(4) وفيات الأعيان (72/5، 73).
(5) دور العلماء والفقهاء المسلمين في الشرق الأدني ص 84.

الجميل، ويمنع من الفعل الرديء الوبيل، ويعاقب في ارتكاب القبيح، ولا يحابي من أصر على القبيح، ليرغَّب الناس في الخيرات ويحذروا من السيئات، ومتى كان السلطان بلا سياسة وكان لا ينهى المفسد عن فساده ويتركه عن مراده، أفسد سائر أموره في بلاده. وقال الحكماء: إن طباع الرعية نتيجة طباع الملك؛ لأن العوامّ إنما يبخلون، ويركبون الفساد، وتضيق أعينهم اقتداء منهم بملوكهم، فإنهم يتعلمون منهم، ويلزمون طباعهم، ألا ترى أنه قد ذُكر في التاريخ أن الوليد بن عبد الملك - من بني أمية - كان مصروف الهمة إلى العمارة والزراعة وكان سليمان بن عبد الملك همّته في كثرة الأكل وتطيب الطعام، وقضائه الأوطار، وبلوغ الشهوات[1]، وكانت همّة عمر بن عبد العزيز في العبادة والزهادة.

قال محمد بن علي بن الفضيل: ما كنت أعلم أن أمور الرعية تجري على عادة ملوكها، حتى رأيت الناس في أيام الوليد بن عبد الملك قد اشتغلوا بعمارة الكُرم والبساتين، واهتموا ببناء الدور، وعمارة القصور ورأيتهم في زمان سليمان بن عبد الملك قد اهتموا بكثرة الأكل وطيب الطعام، حتى كان الرجل يسأله صاحبه: أيَّ لون اصطنعت، وما الذي أكلت؟ ورأيتهم في أيام عمر بن عبد العزيز قد اشتغلوا بالعبادة، وتفرغوا لتلاوة القرآن وأعمال الخيرات، وإعطاء الصدقات لتعلم أن في كل زمان تقتدي الرعية بالسلطان، ويعملون بأعماله، ويقتدون بأفعاله: من القبيح والجميل، واتباع الشهوات، وإدراك الكمالات، كما يقال [2].

وقد ذكر بعض المؤرخين أن كتاب الغزالي (التبر المسبوك في نصيحة الملوك) هو عبارة عن توجيهات للسلطان محمد بن ملكشاه الذي كان مستولياً في عهد المستظهر بالله العباسي، خاطب فيه الغزالي السلطان محمد وذكّره بنعم الله عليه وأهم تلك النعم نعمة الإيمان وبين له أن للإيمان عشرة أصول وعشرة فروع: أما أصول الإيمان فهي: اعلم أيها السلطان أنك مخلوق ولك خالق وهو خالق العالم وجميع الكون, اعلم أن الباري تعالى ليس له صورة ولا مثل، إنه على كل شيء قدير، وأن علمه محيط بكل شيء، وأنه سميع بصير ويقول للشيء : كن فيكون، وأمره تعالى على جميع الخلق، نافذ، وأن جميع ما في العالم مخلوق له تعالى وليس معه شريك، وبعد الموت حساب وسؤال وصراط وجنة ونار.

وجعل الله رسوله ρ آخر الأنبياء وأوصل نبوته إلى درجة الكمال وأمر الخلائق من الإنس والجن بطاعته [3]، وأما فروع شجرة الإيمان فهي: العدل والإنصاف، استماع نصيحة العلماء المخلصين، أن يحارب الظلم من أي جهة صدر، يبتعد عن الغضب ويميل إلى العفو والكرم والتجاوز، يرضى لنفسه ما يرضاه للمسلمين قضاء حوائج المسلمين أفضل من نوافل العبادات، أن يبتعد عن الشهوات، الرفق واللطف خير من الشدة والعنف، كسب رضا الرعية ضمن موافقة الشرع، أن لا يطلب رضا أحد بمخالفة الشرع، ومن نصائحه أن يعرف لماذا وجد الإنسان في الدنيا،

(1) قد ناقشت ما نسب إلى سليمان بن عبد الملك في كتابي عن الدولة الأموية.
(2) التبر المسبوك نقلاً عن صلاح الأمة (201/3).
(3) التبر المسبوك نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد ص 234.

وأن يعرف مصيره، ثم يحذره من الجور والفساد، وأن يبتعد عن أعمال اللهو كلعب الشطرنج والنرد وشرب الخمر وضرب الكرة والصولجان والصيد لأن ذلك يمنعه من أمور الرعية، وعلى السلطان أن يعين رعيته في أوقات الأزمات الاقتصادية، وأن يكون عالي الهمة، وأن يتحلى بالحكمة، وأن يستعمل عقله ثم ذكر شروط الوزير: أن يكون كاتباً، صالحاً عادلاً، وهو حاجة ملحة، كما يذكر شروط الكاتب ومنها: خفة الروح، عالماً ببراية القلم وأن يعطى كل حرف حقه.

كما يتعرض لخير النساء وهي الولود الخفيفة المهر، صاحبة الديانة والعفاف والستر[1] ويبدو أن هذا السلطان كان يصغى لنصائح الغزالي وأخذ ببعضها لقد حرص على العدل والإحسان وتقريب أهل الدين والمعرفة.

3- محاربته للباطنية: انتهزت الباطنية الإسماعيلية فرصة الاضطرابات التي حدثت بعد وفاة ملكشاه والصراع الذي وقع بين أبناء البيت السلجوقي، فسعوا إلى التمكين لأنفسهم عن طريق الاستيلاء على مزيد من القلاع والأماكن الحصينة والتسلل إلى بلاد السلاطين وإلى جيوشهم، وكان جيش بركيارق من الجيوش التي تزايد فيها نفوذهم، وانتشر فيه دعاؤهم ويبدو أن بركيارق لم يشأ أن يصطدم معهم بسبب انشغاله في الصراعات الدائرة مع أهل بيته إلى أن اتهم بالميل إليهم، وتبين له خطرهم وأشار عليه أعوانه أن يفتك بهم قبل أن يعجز عن تلافي أمرهم، فأذن السلطان في قتلهم في عام 494هـ فأخذوا من خيامهم، وأخرجوا إلى ميدان عام فقتلوا فيه: ولم يفلت منهم إلا من لم يعرف[2]، ويذكر أبو الفرج بن الجوزي: أن القتلى بلغوا ثلاثمائة [3]وسرعان ما تتبعهم أمراء الأقاليم فقد قتل " جاولي سقاوو " خلقاً كثيراً منهم بمنطقة " خوزستان " يقارب الثلاثمائة [4]، وأرسل بركيارق إلى الخليفة العباسي يشير عليه بتتبع الموجودين منهم في عاصمة الخلافة، فأمر بالقبض على قوم يظن فيهم ذلك " ولم يتجاسر أحد أن يشفع في أحد لئلا يظن ميله إلى ذلك المذهب "[5].

وطاردهم السلطان سنجر في نفس العام 494هـ فقتلت عساكره منهم خلقاً كثيراً، وحاصروا قلعة " طبس " وخربوا سورها وأوشكت على السقوط، فلجأ الباطنية إلى رشوة قائد العسكر الأمير " بزعش " ومعه كثير من المتطاوعة إلى قلعة " طبس " مرة أخرى فخربها هي وما جاورها من القلاع والقرى، وأكثر فيهم القتل والنهب والسبي، ومع ذلك فإن أصحاب سنجر أشاروا عليه بأن يؤمنهم مقابل ألا يبنوا حصناً ولا يشتروا سلاحاً، ولا يدعوا أحداً إلى مذهبهم [6].

وقد أثار هذا الصلح سخط كثير من الناس على سنجر، بسبب ما وقع عليهم من أذى بأيدي هذه الفئة، ولعلهم أيضاً بأنهم لم يحترموا هذا الأمان ولا هذا الصلح، وهذا ما حدث بالفعل، ففي عام

(1) المنتظم (121/9).
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 138.
(3) المنتظم (121/9).
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 138.
(5) المنتظم (121/9).
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 138.

498هـ خرج جمع كبير منهم من قلعة " طريثيث " قرب مدينة بيهق وأغاروا على النواحي المجاورة لهم، وأكثروا من القتل ونهب الأموال، وسبي النساء ولم يقفوا على الهدنة المتقدمة [1]، وكان عام 498هـ هو نهاية المرحلة التي قاوم السلاجقة فيها نفوذ الباطنية مقاومة فيها الكثير من الحذر بسبب الخلاف الذي كان محتدماً بين أفراد البيت السلجوقي، واستغلال الباطنية هذا الخلاف في التسلل إلى المراكز الهامة في بلاط السلاطين وليس أدل على وجود هذا النفوذ من موقف قائد سنجر عندما قبل رشوتهم في عام 494هـ ورحل عنهم بعد أن أوشكت قلعتهم على السقوط، ثم عندما عقد معهم سنجر معاهدة الأمان في عام 497هـ، بعد أن أنزل بهم عساكره خسائر فادحة، إن هذا التهاون معهم في هاتين الحادثتين رغم النصر الذي حققته عساكر سنجر عليهم فيه دليل على تغلغل نفوذهم داخل بلاط السلاطين، أو على الأقل فيه دليل على تخوف السلاطين وحذرهم منهم وقد كان لهذه المقاومة الحذرة ردود فعل من جانب الباطنية بدءوها باغتيال نظام الملك عندما أرسل عسكراً قاموا بحصار الحسن بن الصباح إثر استيلائه على " الموت " في عام 483هـ [2]، وفي عام 490هـ قتلوا " أرغش النظامي" مملوك نظام الملك بمدينة الري، كما قتلوا في العام ذاته الأمير " برسق " من كبار قواد طغرل بك، وأول من تولى شِحنه بغداد وفي عام 495هـ على باب أصفهان، وفي عام 498هـ خرجوا على قافلة الحجاج القادمة مما وراء النهر وخراسان عند مدينة الري فقتلوا من فيها، وغنموا أموالهم ودوابهم، كما قتلوا في نفس العام شيخ الشافعية بمدينة " الري " الفقيه أبا جعفر [3] المشاط.

* **مرحلة أخرى في محاربة الباطنية:** نبهت هذه الجرائم - وأمثالها - التي ارتكبها الباطنية سلاطين السلاجقة إلى أنه لابد من مقاومة جدية لهذه الطائفة وإلا استشرى خطرها، وعم ضررها وهددت أمن الدولة ونظامها، وتميزت هذه المرحلة بأنه قد بدا فيها واضحاً حرص السلطان محمد - الذي استقرت له الأمور بعد وفاة أخيه بركيارق في عام 498هـ على استئصال هذا الداء، ولم يكن هذا الهدف واضحاً في المرحلة السابقة التي كانت تستهدف - فقط - الحد من خطرهم، وسنركز على عملين كبيرين - كنموذج - قام بهما السلطان محمد في مجال محاولة القضاء على هذه الفئة.

أ- إسقاطه لقلعة أصبهان "شاه دز " وقتل الزعيم الكبير ابن عطاش الذي كان متحصناً.

ب- حصاره لقلعة الموت مدة تزيد على ست سنوات بدأ السلطان محمد حصاره لقلعة أصبهان في عام 500هـ بعد أن استفحل بها أمر الداعي أحمد بن عطاش: فكان يرسل أصحابه لقطع الطريق وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله،.. وجعلوا له على القرى السلطانية، وأملاك الناس ضرائب يأخذونها ليكفوا عنها الأذي، فلما صفت السلطنة لمحمد ولم يبق له منازع لم يكن عنده أمر أهم من قصد الباطنية وحربهم، فرأى البداية بقلعة أصبهان؛ لأن الأذى بها أكثر، وهي متسلطة على سرير

(1) دائرة المعارف الإسلامية (377/3) مادة إسماعيلية.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 139.
(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني، عبد المجيد.

ملكه فخرج بنفسه فحاصرهم [1].

ولأول مرة نرى سلطاناً سلجوقياً يخرج بنفسه لقتال الباطنية، وقد تمكن من الاستيلاء على هذه القلعة في ذي القعدة من عام 500هـ بعد حصار دام حوالي ثلاثة شهور، ووقع ابن عطاش أسيراً هو وابنه فقتلا، وحمل رأساهما إلى بغداد [2]، لم يحصل السلطان محمد على هذا النصر في أول لقاء مباشر بينه وبين هذه الطائفة بثمن بخس، وإنما واجه كثيراً من المواقف الحرجة التي صمد أمامها حتى تحقق هدفه؛ ومن ذلك أنه لما عزم على حربهم في رجب من عام 498هـ استخدم المشايعون لهم في عسكره حرب الشائعات؛ ليصرفوه عن غايته، فأذاعوا أن قلب أرسلان سلطان سلاجقة الروم، قد ورد بغداد وملكها، وافتعلوا في ذلك مكاتبات ثم أظهروا أن خللاً حدث بخراسان، وكان هدفهم من ذلك كله إبعاد السلطان عن أصفهان حتى لا يتحقق الهدف الذي يسعى إليه، لكن السلطان توقف حتى تحقق من بطلان الشائعات فانصرف لغايته [3].

ـ محاولة الباطنية الإسماعلية هدم شرعية قتالهم: عندما شدد السلطان محمد بن ملكشاه الحصار عليهم لجأ الباطنية إلى الخداع، فكتبوا إلى الفقهاء السنيين يطلبون فتواهم في قوم يؤمنون بالله ورسوله، ولكن يخالفون الإمام هل يجوز للسلطان مهادنتهم وموادعتهم، وأن يقبل طاعتهم، ويحرسهم من كل أذى وكادت اللعبة تنجح بعد أن أفتى أكثر الفقهاء بجواز ذلك، وتوقف البعض عن الفتوى، فجمع السلطان الفقهاء للمناظرة، فانتصر رأي الفقيه الشافعي: أبي الحسن على بن عبد الرحمن السمنجاني الذي أفتى بإباحة دمائهم نظراً لرأيهم في الإمام الذي يستطيع أن يحرِّم عليهم ما أحل الله، ويحل لهم ما حرم الله، وتكون طاعته في هذه الحالة ـ حسب اعتقادهم فيه ـ واجبة [4].

كان هدف الباطنية من هذه الخطوة أن يهدموا شرعية قتِالهم، حتى يضعف السلطان وينصرف الجند والناس عنه ما دام يقاتل قوماً مؤمنين، ولما لم تفلح هذه الخطة لجأوا إلى المطاولة وكسب الوقت، فطلبوا من السلطان أن يرسل إليهم من يناظرهم، فصعد إليهم بعض العلماء، ثم عادوا بغير طائل، وأخيراً طلبوا أن يؤمنوا ويتركوا القلعة مقابل أن يوصلهم السلطان إلى بعض قلاعهم الأخرى على دفعات، فإذا عاد إليهم من أخبرهم بوصول الدفعة الأولى إلى القلاع سالمين، نزل ابن عطاش ومن بقي معه ليوصلهم السلطان إلى الحسن الصباح في " آلموت "، ووافق السلطان محمد على ذلك، ووصل الفوج الأول إلى القلاع التي عينوها، فلما تأكد ابن عطاش أن أتباعه وصلوا سالمين نقض عهده، واستمر في العناد إلى أن انتهت مقاومته وسقط أسيراً [5]. وكان هذا النصر الذي حققه السلطان محمد على أحمد بن عبد الملك بن عطاش في أصفهان دافعاً إلى ملاحقة الباطنية، وخاصة في عاصمتهم "آلموت" ففي عام 503 هـ، أرسل وزيره: أحمد بن نظام الملك فحاصر هذه القلعة لكنه

(1) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 140.
(2) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 140.
(3) المصدر نفسه ص 140.
(4) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 141.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن التاريخ السياسي والفكري ص 141.

اضطر للرحيل عنها عند حلول الشتاء، وحاول الباطنية الانتقام من هذا الوزير في نفس العام فطعنوه بالسكاكين في أحد مساجد بغداد إلا أن الطعنات لم تكن قاتلة فبرئت جراحه [1].

- الاستمرار في محاربة الباطنية: وكرر السلطان المحاولة في عام 505هـ وندب لقتال الحسن أحد الأمراء واسمه: أنوشتكين شيركبر، فملك من الباطنية عدة قلاع ولكنه وقع في الخطأ الذي وقع فيه سلطانه قبل ذلك؛ فأمن من كانوا في هذه القلاع، وسيرهم إلى الموت ثم سار هو بعد ذلك بحصارها بعد أن ازدادت قوة ومنعة باطنية القلعة بمن توجه إليها من الباطنية وأمده السلطان بعدد من الأمراء وانعقد عزمهم على إسقاط هذه القلعة مهما كلفهم من جهد، فبنوا المساكن حولها، وعين لكل طائفة من الأمراء - بالتناوب - أشهراً يقيمون فيها لحصارها، على أن يقيم القائد العام " أنوشتكين " إقامة دائمة ولم يتوقف السلطان في هذه الظروف عن إمدادهم بالمؤن والذخائر والرجال حتى اشتد الأمر على الباطنية، وعدمت عندهم المؤن بسبب طول الحصار، ولم يجدوا بدا من إنزال نسائهم يطلبن الأمان لهم، على أن يسلموا القلعة ويوسع لهم كي يمضوا إلى أي طريق شاءوا، ولكن أنوشتكين أدرك الأخطار التي ترتبت على منحهم الأمان في الماضي، وكان من أبرز هذه الأخطار أن هذه القلعة " آلموت " أضحت أكبر مركز لتجمعاتهم بعد أن وفد عليها الكثيرون من القلاع الأخرى التي سقطت قبل ذلك، لهذا رفض أن يمنحهم الأمان، وأعاد النساء إلى القلعة قصدا كي يموت الجميع جوعاً، لكن ما أمله هذا القائد لم يتحقق بسبب وفاة السلطان محمد في عام 511هـ وإصرار الأمراء والجند على الرحيل بعد سماعهم هذا النبأ. وذلك بعد أن استمر حصار القلعة ما يقرب من ست سنوات وبعد أن كان سقوطها وشيك الوقوع، ولم يبق أمام القلعة بعد وفاة السلطان غير أنوشتكين، فانتعشت آمال الباطنية، وقويت نفوسهم واضطر هذا القائد إلى الانسحاب بجنده فغنم الباطنية ما تخلف منهم [2]. وبوفاة السلطان محمد توقف تنفيذ مشروعاته للقضاء على هذه الفئة ووجد الباطنية فرصة مجددة لتقوية أنفسهم مستفيدين من الصراع على السلطة الذي أعقب وفاة السلطان محمد بين ولده محمود وعمه السلطان سنجر، وخلال الخمس عشرة سنة التي أعقبت وفاته استطاعوا بوسائلهم المتعددة أن يمدوا نفوذهم إلى بلاد الشام، وأن يستولوا فيها على بعض القلاع والحصون[3].

4- وفاة السلطان محمد بن سنجر: توفي سنة 511هـ: كان السلطان محمد فحل آل سلجوق له بر في الجملة وحسن سيرة مشوبة، فمن عدله أنه أبطل ببغداد المَكْسَ والضرائب ومنع من استخدام يهودي أو نصراني، وكسا في نهار أربعمائة فقير، وقد كان كفَّ مماليكه عن الظلم، ودخل يوماً إلى قُبة أبي حنيفة، وأغلق على نفسه يُصلي ويدعو، وقيل: إنه خلَّف من الذهب العين أحد عشر ألف ألف دينار ومات معه في العام صاحب قسطنطينية، وصاحب القُدس بغدوين لعنهما الله

(1) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 141.
(2) الكامل في التاريخ (533/6).
(3) التاريخ السياسي والفكري للمذهب السني ص 142.

[1]، قال أحمد القرماني:.. ثم مرض زماناً طويلاً فقيل لـه: مرضك سحري، وإنما سحرتك زوجتك، فأعضل داؤك وأبطل دواؤك! وحملوا السلطان إلى أن كحَّلها وحبسها في بيت ضيق، واعتقلها، وأخرجوا خاتم السلطان وقالوا : إنه أمر بخنقها، ومن عجيب القدر أن الزوجين توفيا في ساعة واحدة، فالختون في بيتها خنقت، والسلطان على فراشه نفسه زهقت في أواخر سنة إحدى عشرة وخمسمائة وخلف خمس بنين، وهم محمود، ومسعود، وطغرل، وسليمان وسلجق [2]، وكلهم تولوا السلطنة سوى سلجق، ولما آيس السلطان نفسه أحضر ولده محموداً وبكى كل منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على سرير الملك، وينظر في أمور الناس، فقال لـه ولده: فإن هذا اليوم غير مبارك: فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأما عليك، فمبارك، فامتثل أمره وجلس على سرير الملك أبو القاسم محمود بن محمد بن ملكشاه مكان والده وأحكم قواعده، وهو يومئذ في سن الحلم، قويّ المعرفة باللغة العربية [3]، مات السلطان محمد بن ملكشاه في آخر سنة إحدى عشرة وخمس مائة بأصبهان، ودفن بمدرسة كبيرة لـه، وقد تزوج المقتفي بابنته فاطمة، وعاش ثماني وثلاثين سنة [4].

(1) سير أعلام النبلاء (57/19).
(2) أخبار الدول وآثار الأول (458/2، 459).
(3) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ (459/2).
(4) سير أعلام النبلاء (507/19).

خامساً: الخليفة العباسي المستظهر بالله:

هو الإمام أمير المؤمنين، أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذّخيرة محمد بن القائم بأمر الله عبد الله بن القادر الهاشمي العباسي البغدادي [1] استخلف عند وفاة أبيه في تاسع عشر من المحّرم، وله ستُّ عشرة سنة وثلاثة أشهر، وذلك في سنة سبع وثمانين [2] وأربعمائة، فكان أول من بايعه الوزير أبو منصور بن جهير، ثم أخذت البيعة له من الملك ركن الدولة بركيارق ابن السلطان ملكشاه ثم من بقيَّة الأمراء والرُّؤساء وصلَّى على الخليفة الأمراء والوزراء، ومن العلماء حضر الغزالي والشاشيُّ وابن عقيل وبايعوه يوم ذلك، وقد كان المستظهر بالله كريم الأخلاق حافظاً للقرآن فصيحاً بليغاً شاعراً مُطبَّقا ومن لطيف شعره قوله:

آذاب حَرَّ الجوى في القلب ما حمدا ::: يوماً مددت على رسم الوداع يدا
فكيف أسْلُكُ نهجَ الاصطبار وقد ::: أرى طرائق في مهوى الهوى قِددا
قد أخلف الوعد بدر قد شغفت به ::: من بعدما قد وفى وهراً بما وعدا
إن كنت أنقض عهدَ الحب في خلدي ::: من بعد هذا فلا عاينته أبدا[3]

وفوض المستظهر أمور الخلافة إلى وزيره أبي منصور عميد الدولة ابن جهير فدبّرها له أحسن تدبير، ومَهَّد الأمور أتّم تمهيد، وساس الرّعايا، وكان من خيار الوزراء وفي ثالث عشر من شعبان عزل الخليفة أبا بكر الشاشيّ عن القضاء وفوّضه إلى أبي الحسن بن الدامغانيَّ، وفيها وقعت فتنة بين السنة والروافض فأحرقت محال كثيرة وقتل ناس كثيرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون[4].

1- قيام المستظهر للتراويح واهتمامه بالقرآن الكريم: حكى أبو طالب بن عبد السميع عن أبيه أن المستظهر بالله طلب من يُصلي به ويُلَّقن أولاده، وأن يكون ضريراً، فوقع اختياره على القاضي أبي الحسن المبارك بن محمد بن الدَّواس مقرئ واسط قبل القلانسي، فكان مكرماً له، حتى إنه من كثرة إعجابه به كان أول رمضان قد شرع في التراويح، فقرأ في الرَّكعتين الأوليين آية آية، فلما سلم، قال له المستظهر: زدنا من التلاوة، فتلا آيتين آيتين، فقال له: زدنا فلم يزل حتى كان يقوم كل ليلة بجزء، وإنه ليلة عطش، فناوله الخليفة الكُوز، فقال خادم: ادع لأمير المؤمنين فإنه شرّفَكَ بمناولته إيَّاك [5]. وقال السَّلفي: قال لي أبو الخطاب بن الجراح: صليت بالمستظهر في رمضان، فقرأت: {**إِنَّ ابْنَكَ سُرِّقَ**} [6] [يوسف: 81]، رواية رويناها عن الكسائي، فلما سلمت قال: هذه قراءة حسنة فيه تنزيه أولاد الأنبياء عن الكذب [7]. قال الذهبي: قلت: كيف بقولهم: {**فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ**} {**وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**}[8] وهذه لفتة جميلة من الذهبي تدل على سعة علمه وقدرته العقلية الكبيرة على النقد واستقامت موازينه العلمية.

(1) المصدر نفسه (396/19).
(2) سير أعلام النبلاء.
(3) البداية والنهاية (142/16).
(4) البداية والنهاية (142/16).
(5) سير أعلام البنلاء (397/19).
(6) المصدر نفسه (397/19).
(7) المصدر نفسه (397/19).
(8) المصدر نفسه (397/19).

2- من أقوال المستظهر: قال أبو طالب بن عبد السميع: كان من ألفاظ المستظهر:

- المرء لدنياه ذكر جميل، ولآخرته ثواب جزيل.
- شُحُّ المرء بفلسه من دناءة نفسه.
- الصبر على الشدائد ينتج الفوائد.
- أدب السائل أنفع من الوسائل.
- بضاعة العاقل لا تخسر وربحها يظهر في المحشر [1].

3- موقف الإمام الغزالي من المستظهر: إن خير كتاب يعطينا صورة لموقف الغزالي من الخليفة المستظهر هو كتابه فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية، والغزالي ألف هذا الكتاب بناء على طلب المستظهر نفسه حتى يرد به على عقيدة الباطنية [2]، والباب التاسع من الكتاب خصصه الغزالي بأكمله لإقامة البراهين الشرعية على أن الإمام الحق القائم بالحق الواجب على الخلق طاعته هو الإمام المستظهر، كما بين بأنه يجب على كافة علماء الدهر الفتوى على البت والقطع بوجوب طاعته على الخلق ونفوذ أقضيته بمنهج الحق وصحة توليته للولاة وتقليده للقضاة وأنه خليفة الله على الخلق وأن طاعته على كافة الخلق فرض [3]، وهذا الباب يمتد من الصفحة 169 إلى الصفحة 225، وهو من أوله إلى آخره دعوة لطاعة المستظهر وللالتفاف حول منصب الخلافة، وقد أورد صفات الإمام وواجباته السياسية والدينية [4]، ونلاحظ إن الإمام الغزالي رمى بثقله الفكري والثقافي والعقائدي لدعم مشروعية الخلافة العباسية والخليفة المستظهر وذلك ليقينه من الخطر الباطني الذي يريد إسقاط المرجعية العباسية وتثبيت الشرعية الفاطمية الباطنية تحت شعار الانتساب زوراً لأهل البيت فكراً ونسباً، وعلم الغزالي أنه إذا تمّ هذا الأمر فإن في ذلك ضياع الدولة السنية؛ لذلك رمى بثقله للحفاظ على الشرعية السنية العباسية أمام المد الباطني.

4- علاقة المستظهر بالمرابطين: كانت الخلافة الفاطمية في مصر والسلطنة السلجوقية في إيران في تنافس مستمر من أجل السيطرة على البلاد الإسلامية، ونفوذ المستظهر الديني مرتبط بامتداد حكم السلاجقة السنيين، أما في الشمال الأفريقي فقد سيطر المرابطون على مراكش وسواحل الأطلسي ثم على بلاد الأندلس بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ، وتمكن يوسف بن تاشفين من إقامة دولة قوية متشعبة الأطراف، هذه الدولة رفضت أن تعطي ولاءها للخليفة الفاطمي بالقاهرة بسبب اعتناقه المذهب الشيعي وهم سنيون حريصون على انتمائهم للخلافة العباسية وهذه محمدة كبيرة تحسب للمرابطين وتفيدنا درساً مهماً وهو أن الأخوة في الدين والعقيدة الإسلامية والسعي لإيجاد علاقات حميمة فيها تعاون على البر والتقوى، وحرص على وحدة الأمة وخصوصاً في وقتنا

(1) سير أعلام النبلاء (397/19).
(2) فضائح الباطنية ص 3.
(3) فضائح الباطنية ص 169.
(4) الحضارة الإسلامية في بغداد 230.

الحاضر[1]؛ لذلك أراد يوسف بن تاشفين أن يتقرب من الخليفة العباسي، ويأخذ منه البيعة، كي يتصف حكمه بالصفة الشرعية، وحتى تصبح طاعته على الكافة واجبة، وهذا الرأي أشار به فقهاء المغرب [2]، وقبل أن يبادر أمير المرابطين إلى الاتصال بالمستظهر نفذ في بلاده عدة خطوات؛ فقد نقش المرابطون اسم الخليفة العباسي على السكة وكانت نقودهم تحمل " عبد الله " ويقصد به الخليفة العباسي حتى لا تتغير السكة بتغير الخلفاء العباسيين ويدل على ذلك الرسالة التي بعث بها علي بن يوسف بن تاشفين إلى المستظهر ذاكراً لفظة " عبد الله " مع أن اسم الخليفة " أحمد " وبعد أن اتسعت دولة المرابطين رأى زعماؤها أن يتخذ أميرهم يوسف بن تاشفين لقب " أمير المؤمنين "، ولكنه رفض هذا الاقتراح تقرباً إلى خلفاء بني العباس، واحتراماً لهم وقال: حاشا لله أن نتسمى بهذا الاسم، وإنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة؛ ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم[3]. ثم اتخذ المرابطون السواد شعار العباسين شعاراً لهم في ملابسهم ورياتهم، وخطبوا للخليفة العباسي على منابر بلداهم [4].

وبعد ذلك أرسل يوسف بن تاشفين، بعثة إلى المستظهر سنة 498هـ تحمل إليه البيعة والهدايا وكتاباً يذكر فيه البلاد التي فتحها وحروبه مع الفرنج، ثم طلبت البعثة من الخليفة أن يعضد ليوسف بن تاشفين على المغرب والأندلس وما يفتحه بالمستقبل بسيف أمير المؤمنين، فأجابه المستظهر لما أراد ولقبه " بأمير المسلمين وناصر الدين " وسير معه الخلع واللواء، وكتب له عهداً بذلك، كما أن الإمام الغزالي والقاضي الطرطوشي أرسلا إليه خطاباً يحثانه على خدمة الإسلام ويفتيانه في ملوك الطوائف[5]، وبعد وفاة يوسف بن تاشقين سنة 500هـ، ملك ابنه علي بن يوسف بن تاشفين الذي واصل سياسة والده في موالاة الخليفة العباسي ومناصرة الشريعة الإسلامية، وفي سنة 512هـ أرسل إليه المستظهر مرسوماً، جواباً عن رسالة سابقة يطلب فيها عهداً من المستظهر وتبدأ الرسالة بحمد الله وشكره والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ρ الذي حمل الدعوة الإسلامية، فأنقذ الأمة من الضلال وأنار القلوب وأعز الدين، ثم الصلاة على العباس عم الرسول ρ وذريته، ثم يذكر مواهب الله على أمير المسلمين يحكم بالعدل ويحرص على مصلحة الرعية ويرد عنها نوائب الأيام، ثم يدعو بالنصر والظفر لجيوشه على أعدائهم، يوافقه على جهاد الكفرة والتوسع في البلاد المحاذية لمملكته، ثم يأمره أن يتخذ القرآن والسنة ويتمسك بالتقوى وأن يثابر على الجهاد ضد الأعداء، وأن يدعو لأمير المؤمنين على منابر دولته أن يكون ظاهراً وظافراً ثم يختمها بالسلام عليه وعلى أهل الطاعة [6]، وبقيت دعوة بني العباس قائمة في المغرب حتى انقطعت دولة المرابطين[7].

(1) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب ص 16.
(2) مرآة الجنان لليافعي (164/3).
(3) الحلل الموشية ص 16.
(4) النجوم الزاهرة (191/5) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 132.
(5) الكامل في التاريخ نقلاً عن الحضارة الإسلامية في بغداد ص 132.
(6) الحلل الموشية لابن الخطيب ص 64، 65.
(7) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 133.

5- موقف المستظهر من الحملات الصليبية: واجهت الخلافة العباسية في عهد المستظهر خطرين داهمين:

الخطر الأول: جاء من الشرق على يد الحركة الباطنية التي صممت على مناهضة الخلافة العباسية عسكرياً وفكرياً.

والخطر الثاني: جاء من الغرب وقد أحدثته الحركة الصليبية التي استهدفت احتلال الشرق وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين حدثت الحروب الصليبية في وقت كان فيه المشرق الإسلامي يعاني من شر الانقسامات السياسية والمذهبية، فالسلطنة السلجوقية تتصارع مع الخلافة الفاطمية المصرية، وكانت بلاد الشام مسرحاً أساسياً لسباق السيطرة بين الطرفين، وأما على صعيد الدولة السلجوقية الذاتي فالأمر كان أدهى وأمر، فقد غرق سلاطين الدولة السلجوقية بعد وفاة ملكشاه في حروب مدمرة حول عرش السلطنة وهذه الحروب أتت على الأخضر واليابس، مما ترك المجال واسعاً أمام أعداء السلطنة في الداخل والخارج، وكانت فرصة مناسبة للصليبيين الذين سيطروا على سواحل بلاد الشام بدون مقاومة تذكر[1]، هذا التفكك الذي أصاب الدولة السلجوقية كان من أكبر عوامل نجاح الحملات الصليبية [2]، وسيأتي الحديث عن الحروب الصليبية في محله بإذن الله تعالى.

6- صراع سلاطين السلاجقة وموقف المستظهر منهم: رغم العلاقة الحسنة التي كانت قائمة بين المستظهر وسلاطين السلاجقة فإنه لم يتمكن من تحقيق أي نوع من الاستقلال ولو في إدارة شؤون مدينة بغداد الداخلية، كما أنه وقف متفرجاً أمام النزاعات العنيفة التي عصفت بوحدة البيت السلجوقي ولم ينتهز الفرصة السانحة كي يحقق لنفسه شيئاً من القوة والسيادة، إلا أن هيبته قويت في عهد السلطان محمد بن ملكشاه [3]، واغتنم المستظهر فرصة الصفا والاحترام القائمة بينه وبين السلطان محمد فأراد أن يوثق صلته أكثر فأكثر بالبيت السلجوقي، فأرسل سنة 502هـ إلى السلطان يطلب أخته تركان خاتون الثانية بنت ملكشاه كزوجة له، فاستقبل طلبه بالترحاب وتحولت العلاقة بين السلطان محمد والخليفة إلى نوع من المحبة والمودة انعكست آثارها علي حياة الناس ببغداد، رفاهية ورخاءً وازدهاراً [4].

7- وفاة المستظهر: عام 512هـ: كان المستظهر موصوفاً بالسخاء والجود ومحبة العلماء وأهل الدين، والتفقد للمساكين، مع الفضل والنبل والبلاغة، وعلوَّ الهمّة، وحسن السيرة، وكان رضيَّ الأفعال، سديد الأقوال [5]، كان راغباً في البر والخيرات مسارعاً إلى ذلك، لا يردُّ سائلاً، وكان جميل المعاشرة لا يُصغى إلى أقوال الوشاة في الناس ولا يثق بالمباشرين، قد ضبط أمور الخلافة جيداً، وأحكمها وعرفها وعلمها، ولديه علم كثير وفضل كثير وفضل كبير، وتوفي عام 512هـ وقد ولي

(1) الحضارة الإسلامية في بغداد ص 136.
(2) المصدر نفسه ص 137.
(3) المصدر نفسه ص 116.
(4) المصدر نفسه ص 125، 126.
(5) سير أعلام النبلاء (397/19).

غسله الإمام ابن عقيل وابن السُّنِّي وصلى عليه ولده أبو منصور الفضل، وكبر أربعاً، ودفن في حجرة كان يسكنها، والعجب أنّه لما مات السلطان ألب أرسلان مات بعده الخليفة القائم بأمر الله، ثم لما مات السلطان ملكشاه مات بعده الخليفة المقتدي بأمر الله، ثم لما مات السلطان محمود مات بعده الخليفة المستظهر بالله، رحمهم الله وكانت وفاة المستظهر بالله سادس عشر ربيع الآخر من هذه السنة، وله من العمر إحدى وأربعون سنة، وثلاثة أشهر وأحد عشر يوماً [1].

سادساً: سنجر والسلطنة السلجوقية:

بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه عام 511هـ بدأت المنازعات من جديد حول عرش السلطنة مما أحدث انقساماً كبيراً بين السلاجقة ويرجع السبب في هذه المنازعات إلى أن السلطان محمد قبيل وفاته أمر بإسناد السلطنة إلى ابنه محمود، الذي ارتقى عرش السلطنة بعد وفاة أبيه، وكان حينئذ في الرابعة عشرة من عمره، ووافق الخليفة العباسي المستظهر بالله " 487 - 512هـ " على إقامة الخطبة للسلطان محمود ببغداد في يوم الجمعة الموافق الثالث والعشرين من محرم سنة 512هـ، ولكن عمه سنجر لم يرضَ عن تولي ابن أخيه عرش السلطنة لأنه يعتبر نفسه أحق منه بالسلطنة بعد وفاة أخيه محمد، فأعلن نفسه سلطاناً على السلاجقة، فغير لقبه عن ناصر الدين إلى لقب معز الدين وهو لقب أبيه ملكشاه وأدى ذلك إلى انقسام الدولة السلجوقية [2] واندلاع القتال بين سنجر وابن أخيه.

وقد التقى محمود بعمه سنجر بالقرب من مدينة ساوة سنة 513هـ، واستعان سنجر في هذه المعركة بفرقة من الفيلة كانت السبب في انتصاره، على أن الصلح لم يلبث أن تم بين الفريقين وسار محمود إلى عمه سنجر فأكرمه وصفح عنه وسامحه عما بدر منه، وعامله معاملة حسنة وقبل شفاعته في آخرين واستقر الرأي على أن يبقى محمود بن محمد شهراً في خدمة عمه السلطان سنجر بالري وألا يدق له البوق [3]، في حالة ركوبه أو نزوله، وأن يسير مترجلاً في ركاب عمه، وأن يترك كل ما يتعلق بشعائر السلطنة ورسومها [4]وأطاع محمود عمه السلطان سنجر ونفذ ما استقر عليه الرأي بينهما، فقرر السلطان سنجر اختياره ولياً لعهده ونائباً عنه في العراق سنة 513هـ، وسمح السلطان سنجر له بأن يلقب بلقب سلطان؛ وبتلك يعتبر أول من جلس على عرش سلطنة السلاجقة بالعراق هو السلطان محمود بن محمد، وأصبح سلطان العراق من الناحية الرسمية خاضعاً وتابعاً لسلطنة السلطان الأعظم سنجر في خراسان، بمعنى أن سلطنة العراق في عهد السلطان سنجر لا تكون إلا لمن ارتضاه وأقره سنجر وكان سلاطين العراق يخضعون للسلطان سنجر ويذكرون اسمه في الخطبة قبل أسمائهم، وقد اعترف الخليفة العباسي المسترشد بالله محمود بن محمد سلطاناً على سلاجقة العراق رغم صغر سنه[5]، وفي سنة 514هـ خطب للسلطان سنجر وابن أخيه السلطان

(1) البداية والنهاية (237/16).
(2) المصدر نفسه ص 90.
(3) البوق: هي أداة مجوفة ينفخ فيها ويزمر.
(4) دول الإسلام (41/2).
(5) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 94.

محمود معاً [1]، وبذلك أصبح هناك سلطانان في آن واحد إلا أن محمود كان يحكم بأمر من السلطان سنجر ومن ثم فهو خاضع لـه خضوعاً كاملاً في جميع أمور السلطنة، وقد أعاد السلطان سنجر لابن أخيه محمود بن محمد جميع البلاد التي كانت تحت سلطانه وحوزته ما عدا (الري) التي كان يراقب منها السلطان سنجر أعمال محمود خشية أن يخرج عليه ويعصيه مرة أخرى، وفي واقع الأمر فإن سلطان محمود الفعلي كان قاصرا على العراقين العربي والعجمي، وظل يحكم أربعة عشرة عاماً حاصلاً لقب سلطاناً حتى توفي عام 525هـ [2] قال عنه ابن كثير: كان من خيار الملوك وكان فيه حلم وأناة وبر وصلابة وجلسوا لعزائه ثلاثة أيام، سامحه الله[3].

1- بسط نفوذه سنجر على بقية أقاليم الدولة السلجوقية: وافق الخليفة العباسي المسترشد بالله في سنة 513هـ بتنصيب سنجر سلطاناً أعظم للسلاجقة وإقامة الخطبة باسمه بعد الخليفة في كافة أقاليم الدولة السلجوقية [4]، وبناء على ذلك اتسع نفوذه وسلطانه وشمل بالإضافة إلى خراسان أكثر أقاليم إيران والعراق هذا وقد أكرم سنجر - بعد أن أصبح سلطاناً أعظم للدولة السلجوقية، أبناء أخيه محمد فوزع عليهم حكم مدن وأقاليم إيران والعراق، واستطاع السلطان سنجر أن يعيد بسط نفوذه وسلطانه على أراضي ما وراء النهر بعد العملية الناجحة التي خاضها ضد محمد خان، ويعتبر السلطان سنجر من السلاطين السلاجقة الذين أبدوا اهتماماً خاصاً بمجريات الأمور في بلاد ما وراء النهر، فكان يضطر دائماً للذهاب إلى أقاليم ما وراء النهر للتأكد من استقرار سلطنته على هذه الأقاليم [5]، واستطاع أن يخضع حركات التمرد في دولته وأمر السلطان سنجر بجمع الضرائب من مدن العراق وجميع البلاد التي بسط نفوذه عليها وأصبح يلقب: بالسلطان الأعظم سلطان جميع الممالك السلجوقية وامتد نفوذه إلى سائر البلاد حتى يقال : إن الخطبة لـه وصلت إلى كاشغر، وأقصى بلاد اليمن ومكة والطائف ومكران وأذربيجان وغزنة وسمرقند، وخراسان وطبرستان، وكرمان، وسجستان، وأصفهان، وهمذان، والري، وآرنية، وآرمينية، وبغداد والعراقين، والموصل، وديار بكر، وديار ربيعة[6]، والشام، والحرمين، كما كانت تضرب لـه السكة في هذه الأقاليم جميعها، وأصبحت جميع هذه البلدان تخضع لنفوذ السلطان سنجر آخر السلاجقة العظام؛ لأنه استطاع أن يعيد للدولة السلجوقية هيبتها ووحدتها، وأن يجعل كل أجزائها خاضعة لأمر سلطان واحد، وأعاد بذلك عصر السلاجقة العظام [7].

2- النزاع بين محمود ومسعود ابنا محمد بن ملكشاه: كثرت النزاعات وظهرت الفتن بين سلاطين السلاجقة في العراق أبناء السلطان محمود ملكشاه، وكذلك فيما بينهم وبين الخلفاء

(1) دول الإسلام (41/2).
(2) العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 617.
(3) البداية والنهاية (290/16).
(4) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 97.
(5) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 101.
(6) ديار ربيعة: تقع في إقليم الجزيرة بالعراق.
(7) زبدة التاريخ للحسيني ص 180.

العباسيين، وكان للسلطان سنجر دور كبير في التدخل في تلك النزاعات وإخماد الفتن وقمعها والقضاء عليها لإقرار الأوضاع واستتباب الأمن في أجزاء الدولة السلجوقية [1]، فبعد أن تولى السلطان محمود أمر السلطنة جعل أخاه مسعود على الموصل مع أتابكة جيوش بك، وفي سنة 514هـ دب النزاع بين الأخوين وخرج مسعود عن طاعة السلطان محمود، وكان سبب ذلك أن دبيس بن صدقة صاحب الحلة، كاتب جيوش بك أتابك مسعود وأغراه بالعصيان على السلطان محمود، ووعده بطلب السلطنة لمسعود وشرع جيوش بك في جمع العسكر وبلغ ذلك الخبر للسلطان محمود فأرسل إليه وإلى أخيه مسعود ووعدهما الإحسان والصفح إن عادا إلى طاعته ويتهددهما إن أصرا على معصيته ولم يستجيبا للسلطان محمود وواصلا عصيانهما له. وسار كل من جيوش بك ومسعود نحو السلطان مسعود والتقى الجمعان عند أسد أباد[2]وسير محمود إلى السلطان سنجر القاضي أبو سعد الهروي يفيده ويخبره بما استجد على الساحة من النزاع بينه وبين أخيه مسعود وقد أسفر اللقاء عن هزيمة جيش مسعود وجيوش بك، وأسر أبو إسماعيل الحسين بن علي الطغرائي [3]، وزير مسعود الذي قتله السلطان محمود، ثم أرسل مسعود إلى أخيه السلطان محمود يطلب منه الأمان والصفح، وجاء إليه وتعانقا وتصافيا، وأرسل السلطان محمود إلى السلطان سنجر يخبر بما فعل مع أخيه مسعود، فما كان من السلطان سنجر إلا أن سعد بتصافى الأخوين وإنهاء الخلاف والنزاع بينهما[4].

3- البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية: في سنة 519هـ كانت البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية، عندما لجأ دبيس بن صدقة إلى طغرل بن محمد حيث حسّن له الاستيلاء على العراق وطلب السلطنة، فاستجاب طغرل لإغراء دبيس له فسار الاثنان على رأس جيش كبير إلى بغداد لقتال الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود بن محمد، وكان سبب مسيرة دبيس بن صدقة لحرب الخليفة ما بينهما من نزاع وخلاف، بينما كان هدف طغرل هو انتزاع لقب السلطان من أخيه محمود بن محمد، وحينما بلغ الخليفة أن طغرل ودبيس بن صدقة أعدا جيشاً لقتاله، أعد هو الآخر جيشاً وخرج لصدهما إلا أن طغرل مرض فجأة ومن ثم لم يشترك في الحرب ضد الخليفة المسترشد بالله، وتقابل جيش الخليفة مع جيش دبيس بن صدقة، إلا أن دبيساً طلب العفو من الخليفة وقبّل الأرض بين يدي الخليفة، مما جعل الخليفة يصفح عنه[5].

4- اضطراب الأحوال بين الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود، وكان سبب هذا الاضطراب بينهما أن الخليفة هدد الشحنة[6]، فاضطر إلى مغادرة بغداد خوفاً من أن يصيبه أذى فلحق بالسلطان محمود الذي أغراه بالخليفة في رجب سنة 540هـ وحذره من الخليفة

(1) العالم الإسلامي في العصر العباسي ص 617.
(2) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 106.
(3) وفيات الأعيان 185/02 - 190).
(4) دول الإسلام (41/2).
(5) الدولة السلجوقية في عهد سنجر ص 107.
(6) الشحنة: مندوب الخليفة أو السلطان ويرأس شرطة المدينة.

وأخبره أنه يعد العدة ضده ليمنعه من دخول بغداد، فلما علم الخليفة بذلك أرسل إليه يطلب منه تأجيل خروجه إلى حين إصلاح البلاد على إثر ما سببه دبيس وجيشه من فساد وكثرة الغلاء، ثم استعد الخليفة لإرسال المال على شرط أن يتأخر في القدوم إلى بغداد، فما كان جواب السلطان إلا أن نفذ ما قرره له الزكوى، وصمم العزم على التوجه إلى بغداد، ونزل بباب الشماسية [1]، فلما بلغ الخبر الخليفة العباسي المسترشد بالله عبر مع أهله إلى الجانب الغربي راحلاً من بغداد فغضب السلطان لقوله وتوجه إلى بغداد وبقي الخليفة بالجانب الغربي، وكان لخطبته في عيد الأضحى أثر كبير في نفوس الناس طبع عليهم طابع الحزن مما هم فيه، ويبدو أن خطبة الخليفة أوعزت إليهم بالاستعداد لدخول الحرب مع السلطان محمود[2].

5- القتال بين عماد الدين زنكي وأحد خواص الخليفة: أرسل الخليفة المسترشد عفيفاً الخادم، أحد خواصه إلى واسط ليمنع عنها نواب السلطان، فوصلها ونزل بالجانب الغربي وكان عماد الدين زنكي ابن آقسنقر [3]، بالجانب الشرقي، فأرسل عماد الدين زنكي إلى عفيف يطلب منه الرحيل فرفض، فعبر إليه عماد الدين وحدث القتال وانهزم عسكر عفيف وقتل منهم عدد كبير بالإضافة إلى الأسرى، وقد نجا عفيف من القتل ودخل جماعة من عسكر السلطان محمود في دار الخلافة في أول محرم سنة 521هـ ونهبوا التاج وحجر الخليفة، وخرج عليهم عسكر الخليفة العباسي المسترشد بالله من مخابئهم وهم منشغلون بالنهب، ونالوا من عسكر السلطان محمود وأسروا جماعة من الأمراء وقتلوا آخرين في الطريق[4]، ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتل، وخوفاً من تسلل جيش السلطان محمود إلى بغداد أمر الخليفة الجند بحفر خندق بغداد فسارعوا بتنفيذ ذلك ليلاً، وعندما وصل جيش السلطان صعب عليه دخول بغداد مما أدى إلى حدوث قتال بين الجيشين، وكاد جيش الخليفة أن ينتصر لولا أن غدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي[5] صاحب أربل وانضم إلى جيش السلطان، ولعل الذي دفعه إلى هذا اعتقاده بكثرة جيش السلطان محمود وخاصة بعد وصول الإمدادات العسكرية البرية والبحرية برفقة عماد الدين زنكي، هذا الموقف جعل الخليفة يفكر جدياً في الأمر وخاصة بعد أن أرسل السلطان رسلا بعرض الصلح عليه، وكان السلطان يهدف من وراء ذلك إلى إرضاء الخليفة لما يتمتع به من مكانة دينية عند الناس وتفانيهم في سبيله، وترددت الرسل بينهما ثم تمَّ الصلح بينهما في العاشر من ربيع الآخر من نفس السنة، وعفا السلطان محمود عن أهل بغداد وأهداه الخليفة المسترشد بالله مالاً وخيلا وسلاحاً، ونظراً للمواقف السامية التي وقفها عماد الدين زنكى مع السلطان محمود، قام السلطان بالتشاور مع رجال دولته بإضافة ولاية العراق إليه، فلقى تأييداً منهم على ذلك [6]، ثم رحل السلطان محمود إلى

(1) الشماسية: تقع خارج بغداد وينسب إليها باب الشماسية أحد أبواب بغداد.
(2) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 109.
(3) عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية يأتي الحديث عنه بإذن الله.
(4) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 110.
(5) المصدر نفسه ص 110.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 111.

همذان[1].

6- حكمة السلطان سنجر في التعامل مع محمود ابن أخيه: أثار دبيس بن صدقة السلطان سنجر على كل من الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود وأخبره بأنهما اتفقا على إبعاده وأن السلطان محمود خرج عن طاعته، مما أثار نفس سنجر عليه وهنا يتضح مدى الحقد في نفس دبيس على الخليفة وهذا يرجع إلى سوء علاقته بالخليفة، وقد استطاع أن يؤثر على السلطان سنجر مما دفعه إلى أن سير جيشاً إلى العراق سنة 522هـ، ولما وصل إلى الري أرسل في طلب السلطان محمود، وهنا يأتي دور الحنكة السياسية القوية التي تربطه بالسلطان محمود، حيث إنه ابن أخيه وزوج ابنته وكذلك تأثير والدة سنجر (جدة محمود) عليه، كل هذا جعله يستدعي السلطان محمود من همذان كي يتثبت مما أخبره به دبيس بن صدقة وتأكد سنجر أن السلطان محمود ما زال على طاعته وأجلسه معه على التخت وأقام محمود عند السلطان سنجر حتى آخر هذه السنة ومن هذه الحادثة أو القصة يتضح لنا دور المفسدين وأصحاب الأغراض الخبيثة في التفريق بين أمراء المسلمين، فلا بد من الحذر من تقريب أمثال هذه النوعيات المفسدة وإبعادها عن أصحاب القرار والسعي لتقريب المصلحين من أصحاب الكفاءات العالية لتتم الاستفادة الحقيقية من دروس التاريخ، وبعد ذلك عاد سنجر إلى خراسان وأوصى محموداً بإعادة دبيس إلى بلده وأن يسأل الخليفة الصفح عنه، في محرم سنة 523هـ، وأعاد دبيساً إلى بلده واسترضى الخليفة فرضى عنه وطلب منه الصفح فصفح عنه [2]، مقابل بذل مائة ألف دينار نظراً لرغبة السلطان محمود في انتقال ولاية الموصل من عماد الدين زنكي إلى دبيس بن صدقة تقديراً لاهتمام عمه سنجر به[3]، إلا أن عماد الدين زنكي أقنع السلطان محمود بأهميته في ولاية الموصل.

7- السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي: استمر النزاع بين أبناء البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه عام 525هـ، فقد انقسم السلاجقة أنفسهم إلى معسكرات ثلاث لكل أطماعه الخاصة في السلطنة، ولكل مؤيدوه من القواد والجند؛ معسكر على رأسه داود ابن السلطان محمود الذي نودي به سلطاناً عقب وفاة أبيه، ومعسكر على رأسه كل من مسعود وسلجوقشاه شقيقي السلطان المتوفى، ومع أن هذين الأخوين كانا متفقين على مبدأ عزل ابن أخيهما داوود، إلا أنهما كانا مختلفين فيما بينهما، إذ كل منهما يعمل على أن تكون السلطة لنفسه بعد إسقاط عدوهما المشترك ولذا دارت بين الفريقين حروب طويلة.

واستعان مسعود في هذا النزاع بعماد الدين زنكي الذي كان قد استطاع أن يوطد سلطانه في شمال العراق وسوريا في ذلك الوقت، واستمرت الحرب سجالاً بين الأخوين المتحاربين إلى أن اضطرا إلى عقد الصلح بعد أن تدخل الخليفة المسترشد العباسي بينهما، واتفق الطرفان على أن تكون السلطنة لمسعود، وأن تئول إلى سلجوقشاه من بعده ويرجع السبب في نجاح مسعى الخليفة في

(1) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 111.
(2) العبر في خبر من غبر (50/4) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 112.
(3) الدولة السلجوقية في عهد السلطان سنجر ص 112.

هذا الصلح إلى ظهور العدو المشترك، وهو سنجر بن ملكشاه وأما المعسكر الثالث فكان يتكون من طغرل ابن السلطان محمود، يناصره عمه سنجر، وقد استطاع سنجر أن يجمع من إقليم خراسان عدداً كبيراً من الجند هزم به مسعوداً وأنصاره عند مدينة همذان، ونادى بالسلطنة لابن أخيه طغرل [1]، ولم يكن من المعقول أن يرضى المعسكران الآخران عن تولية طغرل السلطنة؛ لذا تضاربت مصالح البيت السلجوقي وتعقدت، فنشبت الحروب بين هذه القوى الثلاث، وأدى ذلك كله إلى اضطراب الشرق الإسلامي في ذلك الوقت وقد انتهت أدوار النزاع بين أفراد السلاجقة بجلوس السلطان مسعود على عرش السلطنة 528هـ، قال ابن خلِّكان عن السلطان مسعود: كان عادلاً ليناً، كبير النفس، فرق مملكته على أصحابه وما ناواه أحد إلا وظفر به، وقتل خلقاً من كبار الأمراء... وأقبل مسعود على اللّذات والبطالة، وحدث له علَّةُ الغثيان مدة، وجرت بينه وبين عمه سنجر منازعة ثم تصالحا[2]. كان كثير المزاح، حسن الخلق كريماً، عفيفاً عن أموال الرعية، من أحسن السلاطين سيرة وألينهم عريكة [3].

قال عنه الذهبي: أبطل مكوساً ومظالم كثيرة، وعدل، واتسع ملكه، وكان يميل إلى العلماء والصالحين، ويتواضع لهم [4]. ويستجيب للوعظ ففي يوم الجمعة المنتصف من ذي القعدة جلس ابن العبَّادي الواعظ، فتكلم والسلطان مسعود حاضر وكان قد وضع على الناس مكساً في البيع فاحشاً فقال في جملة وعظه: يا سلطان العالم، أنت تطلق في بعض الأحيان للمُغنيَّ إذا طربت قريباً ممَّا وضعت على المسلمين من هذا المَكْس فهبني مغنياً وقد طربت فهب لي هذا المكس شكراً لنعم الله عليك وأسقطه عن الناس، فأشار السلطان بيده أن قد فعلت فضّج الناس بالدُّعاء له، وكتب بذلك سجَّلات، ونودي في البلد بإسقاط ذلك المكس، ففرح الناس بذلك [5]. كان السلطان مسعود بطلاً شجاعاً، ذا رأي وشهامة، تليق به السلطنة [6]مات في جمادي الآخرة سنة سبع وأربعين وخمسمائة. قال عنه ابن كثير:.. حصل له من التمكن والسعادة شيء كثير لم يحصل لغيره وجرت له خطوب كثيرة وحروب طويلة[7].

- وفاة السلطان مسعود عام 547هـ:

توفي السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان عام 547هـ وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بهمذان عام 547هـ وعهد إلى ابن أخيه ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد، وخطب له ببلاد الجبل، وكان الغالب على البلاد والعساكر أيام السلطان مسعود خاصبك بن بلنكري، فقام بأمر ملكشاه، ولم يمهله، غير قليل حتى قبض عليه، وكتب إلى أخيه الملك محمد بن محمود، وهو بخُوزستان، يستدعيه إليه ليخطب له بالسلطنة، وكان غرض خاصبك أن يقبض عليه أيضاً فيخلو

(1) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي 58.
(2) سير أعلام النبلاء (385/20).
(3) المصدر نفسه (385/20).
(4) المصدر نفسه (385/20).
(5) البداية والنهاية (340/16).
(6) سير أعلام النبلاء(385/20).
(7) البداية والنهاية (367/16).

وجهه من منازع من الدولة السلجوقية وحينئذ يطلب السَّلطنة لنفسه، فلما كاتب محمداً أجابه على الحضور عنده، وسار إليه وهو بهمذان، واجتمع به وخدمه خدمة عظيمة، فلما كان الغد دخل عليه خاصبك فقتله محمد، وألقى رأسه إلى أصحابه، فتفَّرقوا، واستقَّر محمد وثبتت قدمه، واستولى على بلاد الجبل جميعها، وكان قتل خاصبك سنة ثمان وأربعين وبقي مطروحاً حتى أكلته الكلاب[1]وذكر الوزير يحيى بن هُبيرة في كتاب "الإفصاح " أنه لما تطاول على الخليفة المقتفي أصحاب مسعود وأساؤوا الأدب، ولم يمكن المجاهرة بالمحاربة، اتَّفق الرَّأي على الدُّعاء على مسعود بن محمد شهراً، كما دعا رسول الله ρ على رعْل وذكوان[2]. قبيلتان من بني سُلَيم، أجابتا عامر بن الطفيل إلى قتل القراء الدعاة الذين بعثهم رسول الله ρ لأهل نجد سنة 4هـ قتلى بئر معونة[3].

واستمر الوزير يحيى بن هبيرة والخليفة المقتفي في الدعاء شهراً، فابتدأ هو والخليفة سِرًّا، كل واحد في موضعه يدعو شهراً، من ليلة تسع وعشرين من جُمادى الأولى سنة سبع وأربعين وخمسمائة واستمر الأمر على ذلك كلَّ ليلة، فلما كان ليلة تسع وعشرين من جمادي الآخرة كان موت مسعود على سريره، لم يزد عن الشهر يوماً ولا نقص يوماً.. فأزال الله يده ويد أتباعه عن العراق، وأورثنا أرضهم وديارهم، فتبارك الله رب العالمين، مجيب دعوة الدّاعين. قال: وكان الشيخ محمد بن يحيى يقول: لا أدلُّ على وجود موجود أعظم من أن يُدعى فيجيب [4].

سابعاً: الخليفة المسترشد بالله العباسي:

هو أمير المؤمنين أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد ابن القائم عبد الله بن القادر القرشي الهاشمي العباسي البغدادي[5].

1- بيعته: بويع له بالخلافة سنة 512هـ وخطب له على المنابر وقد كان ولي العهد من مدة ثلاثة وعشرين سنة، وكان الذي أخذ البيعة له قاضي القضاة أبو الحسن الدّامغاني ولما استقرت البيعة له هرب أخوه أبو الحسن في سفينة ومعه ثلاثة نفر وأحسن إليه، فقلق المسترشد بالله من ذلك فراسل دُسا في ذلك مع نقيب النقباء الزّينبي، فهرب أخو الخليفة من دبيس فأرسل إليه جيشاً فألجؤوه إلى البرّية - فلحقه عطش شديد فلقيه بدويَّان فسقياه ماء وحملاه إلى بغداد، فأحضره أخوه إليه، فاعتنقا وبكيا، وأنزله الخليفة داراً كان يسكنها قبل الخلافة وأحسن إليه، وطيب نفسه، وكان مُدَّة غيبته عن بغداد أحد عشر شهراً واستقرت الخلافة بلا منازعة للمسترشد[6].

2- من صفاته وشعره: كان له خط بديع، ونثر صنيع، ونظم جيِّد، مع دين ورأي وشهامة

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين
(2) المصدر نفسه (287/1).
(3) سيرة ابن هشام (193/3 - 199).
(4) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (288/1).
(5) سير أعلام النبلاء (561/19).
(6) البداية والنهاية (237/16).

وشجاعة، وكان خليقاً للإمامة، قليل النظير[1]، كان يتنسك في أوَّل زمنه، ويلبس الصوف، ويتعبد، وختم القرآن، وتفقه، ولم يكن من الخلفاء من كتب أحسن منه، وكان يستدرك على كُتَّابه، ويصلح أغاليط في كتبهم [2]، وكانت أيامه مكدّرة بتشويش المخالفين، وكان يخرج بنفسه لدفع ذلك ومباشرته، إلى أن خرج، فكُسر وأسر، ثم استشهد على يد الملاحدة، وقد سمع الحديث [3]، وكان له نظم ونثر مليح ونبل رأى [4] وكان شاعراً فمن شعره:

قالوا تَقيُم وقد أحاط ::: بك العدوَّ ولا تَفرَّ
فأجبتهم المرء ما لم ::: يتعظ بالوعظ غَرَّ
لا نِلت خيراً ما حييت ::: ولا عداني الدّهر شرُّ
إن كنت أعلم أن غير ::: الله ينفع أو يُضرُّ

ومن شعره أيضاً:

أنا الأشقر الموعود بي في الملاحم ::: ومن يملك الدنيا بغير مزاحم
ستبلغ أرض الروم خيلي وتُنتضى ::: بأقصى بلاد الصَّين بيض صوارمي[5]

وقيل: إنه قال لما أسر مستشهداً:

ولا عجباً للأسد إن ظفرت بها ::: كلاب الأعادي من فصيح وأعجم
فحربة وحشيٍّ سقت حمزة الرَّدى ::: وموت عليٍّ من حُسام ابن ملجم [6]

3- جهود الخليفة المسترشد بالله في إرجاع هيبة الخلافة: قام الخليفة المسترشد بالله بأعمال إصلاحية جذبت إليه تأييد الناس، ثم دعاهم للجهاد ضد المتمردين الذين عاسوا فساداً في بغداد وما حولها وبخاصة دبيس بن صدقة صاحب الحلة ودخلت أعداد كبيرة تحت راية الخليفة الذي قادهم ضد دبيس وانتصر عليه [7] في عام 526هـ، وكان لهذا الانتصار أثر كبير في نفوس الناس فكسب الخليفة تأييد الرأي العام وولاءه واستطاع أن يستعيد بعض نفوذه السياسي [8]. وفي عهد الخليفة المسترشد بالله بدأت حركة اليقظة الشعبية العامة في بغداد والتي كان من زعمائها الشيخ عبد القادر الجيلاني، وسيأتي الحديث عنه لاحقاً عند حديثنا عن الزنكيين ودورهم في الجهاد ضد الصليبيين بإذن الله تعالى.

4- حصار الخليفة المسترشد بالله للموصل: حاصر الخليفة المسترشد بالله الموصل قرابة ثلاثة أشهر، ولم تجد نفعاً عروض عماد الدين زنكي بدفع الأموال للخليفة مقابل أن يفك الحصار عن هذه المدينة، ولما أدرك الخليفة عدم جدوى الحصار عاد إلى بغداد[9]، ويظهر أن عماد الدين زنكي

(1) سير أعلام النبلاء 561/019).
(2) المصدر نفسه (562/19).
(3) المصدر نفسه (562/19).
(4) المصدر نفسه (562/19).
(5) سير أعلام النبلاء (562/19).
(6) سير أعلام النبلاء (563/19).
(7) سياسة الخليفة الناصر لدين الله الداخلية، أحلام النقيب ص 11.
(8) المصدر نفسه ص 12.
(9) مختصر الدول لابن العبري ص 354.

خشي مغبة خلافه مع الخلافة العباسية، فأراد أن يصلح ما أفسده سابقاً بعدائه لها، فأرسل في سنة 528هـ إلى الخليفة المسترشد بالله أحد قضاة الموصل، ومعه التحف والهدايا والخيل والسلاح طالباً الصلح، فوافق الخليفة [1]، وكانت موافقة الخليفة على الصلح مع عماد الدين زنكي أكبر دليل على حكمته وحنكته السياسية حيث أتاح له هذا الصلح التفرغ الكامل للسلاجقة فضلا عن كونه استطاع أن يحول عداء زنكي إلى صداقة وولاء [2].

5- القتال بين الخليفة والسلطان مسعود ووقوعه في الأسر ومقتله: لم تنته متاعب الخليفة المسترشد بالله مع السلاجقة، فقد نقض السلطان مسعود اتفاقه مع الخليفة، فكان رد الفعل المباشر لهذا هو قطع الخطبة له في بغداد، كما أن السلطان مسعود ضعفت سلطنة 528هـ بعد أن انضم معظم عسكره إلى أخيه طغرل [3]، على أن الخليفة المسترشد بالله ما لبث أن دعا مسعود إلى القدوم إلى بغداد يعيده إلى منصبه، فلبى مسعود دعوته [4]، وكان هدف الخليفة هو الاستفادة قدر الإمكان من نزاع السلاجقة لإضعافهم؛ ولهذا أخذ يحرض السلطان مسعود على السير لحرب أخيه طغرل. ولكن السلطان مسعود لم يجب طلبه [5]، وتجدد الخلاف بعد ذلك بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان مسعود، فقد اكتشف وزير الخليفة خطاباً أرسله طغرل إلى بعض الأمراء الموالين له في بغداد، فقبض الخليفة على أحدهم، بينما لجأ الباقون إلى السلطان مسعود ورفض أن يسلمهم للخليفة، فغضب الخليفة منه، وأمره بالرحيل عن بغداد فخرج منها في شهر ذي الحجة من عام 528هـ [6]. غير أن الخليفة علم بمسير طغرل على رأس جيشه إلى العراق، فاضطر إلى مصالحة السلطان مسعود ليقفا سوياً في وجه عدوهما المشترك[7].

ثم جاءت الأخبار بوفاة طغرل وهو في طريقه إلى بغداد، فسار السلطان مسعود إلى همذان، وتولى الحكم في أول عام 529هـ [8]، ولما استقرت السلطنة لمسعود في همذان، أخذ الأمراء الذين لجأوا إليه خوفاً من الخليفة يحرضونه على المسير لحرب الخليفة لإخضاعه للنفوذ السلجوقي، فانصاع السلطان مسعود إليهم، وأخذ يجهز جيشه لمهاجمة بغداد مما حمل الخليفة على قطع الخطبة له، وأخذ يعد العدة لحربه[9]، ثم خرج الخليفة المسترشد بالله من بغداد لقتال السلطان مسعود، ويذكر ابن الأثير أن جيش الخليفة المسترشد بالله كان سبعة آلاف جندي، بينما لم يتجاوز جيش عدوه ألفا وخمسمائة جندي، إلا أن السلطان مسعود لجأ إلى السياسة وأخذ يستميل أمراء الأطراف الذين كانوا

(1) الأبناء لابن العمراني ص 218.
(2) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 54.
(3) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 54.
(4) المصدر نفسه ص 54.
(5) المصدر نفسه ص 54.
(6) المنتظم في (36/10).
(7) المنتظم (41/10).
(8) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 54.
(9) المنتظم 43/010).

على اتصال بالخليفة. ولكن تريث الخليفة في الطريق ساعد السلطان مسعود على استمالة أولئك الأمراء، وضمهم إلى جيشه، وكان الخليفة يعتقد أنه إذا خرج للقتال فسيكون الناس إلى جانبه ضد السلاجقة [1]، لكن الأمور لم تسر وفق ما خطط لها المسترشد بالله، بل حدث العكس، فلما التقت قواته بجيش السلطان مسعود غدر به الأمراء الأتراك وأتباعهم فانسحبوا من جيشه، وانضموا إلى جيش السلاجقة، فانهزم جيش الخلافة، ووقع الخليفة نفسه في الأسر [2] مع خواصه، فحبسهم السلطان مسعود بقلعة بقرب همذان، فبلغ أهل بغداد ذلك فحثوا على رؤوسهم التراب في الأسواق، وبكوا وضجّوا، وخرجت النساء حاسرات يندبن الخليفة ومنعوا الصلاة والخطبة وكسروا منابر الجوامع [3].

قال ابن الجوزي: وزلزلت بغداد مراراً كثيرة والناس يستغيثون فأرسل السلطان سنجر إلى ابن أخيه مسعود يقول: ساعة وقوف الولد على هذا الكتاب يدخل على أمير المؤمنين ويقبل الأرض بين يديه ويسأل العفو والصفح، فقد ظهر عندنا من الآيات السماوية والأرضية ما لا طاقة لنا بسماع مثلها فضلاً عن المشاهدة من العواصف والبروق والزلازل وتشويش العساكر وانقلاب البلدان. ولقد خفت على نفسي من جانب الله تعالى وظهور آياته وامتناع الناس من الصلوات في الجوامع ومنع الخطباء مما لا طاقة لي بحمله، فالله الله بتلافي أمرك وتعيد أمير المؤمنين إلى مقر عزه وتحمل الغاشية بين يديه [4]، كما جرت به عادة السلاطين من قبلنا، ففعل السلطان مسعود جميع ما أمر به وهم فيما هم فيه، إذ هجم سبعة عشر رجلاً من الباطنية على الخليفة وهو في خيمته فقتلوه وقتلوا معه جماعة من أصحابه[5]، فما شعر بهم العسكر إلا وقد فرغوا من شغلهم فأخذوهم وقتلوهم، فلما وصل الخبر إلى بغداد واشتد ذلك على الناس وخرجوا حفاة مخرقين الثياب والنساء ناشرات الشعور، يلطمن على خدودهن، ويقلن المراثي؛ لأن المسترشد كان محبباً فيهم [6]، وكانت دولته سبع عشرة سنة وسبعة أشهر وعاش ستاً وأربعين سنة [7].

ثامناً: الخليفة الراشد بالله:

أمير المؤمنين أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله الفضل بن أحمد العباسي، ولد سنة اثنتين وخمس مائة في رمضان، فقيل: ولد بلا مخرج ففتُق له مخرج بآلة من ذهب، وأمه أم ولد، خطب له بولاية العهد سنة ثلاث عشرة وخمس مائة، واستخلف في ذي القعدة سنة تسع وعشرين [8]. وقد

(1) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 55.
(2) المنتظم (10/44 - 45).
(3) أخبار الدول وآثار الأول (2/169).
(4) الغاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب.
(5) أخبارالدول وآثار الأول (2/170).
(6) المصدر نفسه (2/170) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص 139.
(7) سير أعلام النبلاء (19/567).
(8) سير أعلام النبلاء (19/569).

بايعه الأعيان ببغداد والأمراء، وخطب لـه على المنابر ببغداد وسائر البلاد[1].

1- الخلاف بين السلطان مسعود والخليفة الراشد: وقع الخلاف بين الخليفة والسلطان بسبب أنه أرسل إلى الخليفة يطلب منه ما كان كتب لـه والده المسترشد حين أسره، التزم به بأربعمائة ألف دينار، فامتنع من أداء ذلك وقال: ليس بيننا وبينكم إلا السيف فوقع بينهما الخلاف، فاستجاش السلطان العساكر، واستنهض الخليفة الأمراء وأرسل إلى عماد الدين زنكي فجاء، والتفَّ عليه خلائق، وجاء في عُيون ذلك السلطان داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه، فخطب لـه الخليفة في بغداد وخلع عليه وبايعه على الملك، فتأكدت الوحشة بين السلطان والخليفة جدّاً، وبرز الخليفة إلى ظاهر بغداد، ومشى الجيش بين يديه، كما كانوا يعاملون به أباه قبله وخرج السلطان داود من جانب، فلما بلغهم كثرة جيوش السلطان مسعود حسَّن عماد الدين زنكي للخليفة أن يذهب معه إلى بلاد الموصل واتفق دخول السلطان مسعود إلى بغداد في غيبتهم، فاستحوذ على دار الخلافة بما فيها جميعه، ثم استخلص من نساء الخليفة وحظاياه الحُلِيَّ والمصاغ والثياب التي للزَّينة، وغير ذلك [2]، وهذا ظلم وعسف وجور.

2- عزل الخليفة الراشد: جمع السلطان مسعود القضاة والفقهاء وأبرز لهم خط الراشد أنه متى خرج من بغداد لقتال السلطان فقد خلع نفسه من الخلافة فأفتى من الفقهاء بخلعه، فخُلع في يوم الاثنين سادس عشر شهر ذي القعدة بحُكم الحاكم وفُتيا أكثر الفقهاء[3]. وجاء في رواية عن خلعه:.. اجتمع الوزير أبا القاسم علي بن طراد الزينبي، وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحب المخزن أبا الفتوح طلحة يوم الاثنين سادس عشر ذي القعدة سنة ثلاثين وكتبوا محضراً فيه شهادة جماعة من العدول بما جرى من الراشد بالله من الظلم وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر وذكروا فسقه وعدّوا أفعاله وارتكابه المحارم واستفتوا الفقهاء في من فعل ذلك، هل تصح إمامته أم لا؟ وهل إذا ثبت فسقه بما ذكر عنه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه، ويستبدل به من أهل بيته من هو خير منه طريقة وديناً؟ فأفتى الفقهاء الذين في ذلك الوقت بخلعه، وفسخ عهده، وحل عقده، والاستبدال به غيره إذا كان بهذه الصفة، وعرضت هذه الفتوى والمحضر على السلطان مسعود: فقال: هذا أمر قد قلدتكم إياه وأنا منه برىء عند الله. ثم قال: اختاروا رجلاً من هذا البيت يصلح لهذا الأمر، فوقع الاختيار بواسطة الزينبي أن يولي أبا عبد الله محمد بن المستظهر بالله، فلما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة، حضر السلطان مسعود والجماعة الذين حضروا دار الخلافة في الدار التي على دجلة، وتعرف بالمثمنة، وأحضر أبو عبد الله، محمد بن المستظهر بالله ولقب بالمقتفي لأمر الله، وعاد السلطان مسعود إلى داره، ثم فتح باب الدار القائمية بكرة يوم الأربعاء، ثامن عشر ذي القعدة، فبايعه الفقهاء والقضاة والشهود وأعيان الناس، ثم خلع الراشد وكان

(1) سير أعلام النبلاء (569/19).
(2) المصدر نفسه (309/16).
(3) سير أعلام النبلاء (309/16).

مقيماً بالموصل [1] وهذه الفتوى لها حظ من سخط السلطان مسعود على الخليفة الراشد ولولا الخلاف الذي وقع بين الخليفة والسلطان لما سمعنا بها أصلاً.

3- تتبع السلطان مسعود للراشد: كتب السلطان مسعود إلى عماد الدين زنكي أمير الموصل في القبض على الراشد وإرساله إلى بغداد، فمنع من ذلك زين الدين أبو الحسن على بن بكتكين صاحب أربل وقال لعماد الدين: هو ضيف عندنا وفي كرامتنا وقد كان بالأمس خليفتنا والله، ولا سلمناه، ولو أريقت دونه الدماء ما دامت الأرض والسماء، فاعتذر عماد الدين للسلطان مسعود وقال: إني أخرجه من ولايتنا، فأرسل إليه أنت عسكراً يقبض عليه في غير جهتنا، وأعد له زين الدين جماعة من الأكراد، فساروا بين يديه على طريق قريبة لا يعرفها من الناس إلا آحاد أو بعض آحاد فوصل مراغة أذربيجان [2].

4- مقتل الراشد: كان الراشد حسن السيَّرة، مؤثراً للعدل، فصيحاً عذب العبارة، أديباً شاعراً، جواداً، لم تَطل أيامه حتى خرج إلى الموصل ثم إلى أذربيجان، وعاد إلى أصبهان، فأقام على بابها مع السلطان داود محاصراً لها، فقتلته الملاحدة هناك - الباطنية - وكان بعد خروجه من بغداد مجيء السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه [3]، ومن كلامه الجميل: إنا نكره الفتن إشفاقاً على الرعيَّة ونؤثر العدل والأمن في البرية، ويأبى المقدور إلا تصعَّب الأمور واختلاط الجمهور، فنسأل الله العون على لَمّ شَعَثِ الناس بإطفاء نائرة البأس [4].

وقد أعطى الله الراشد مع الخلافة صورة يوسفية وسيرة عمرية [5]. وقد ذكر الذهبي في مقتله؛ بأن الراشد خرج من الموصل إلى بلاد أذربيجان إلى مراغة وكان معه جماعة فصادروا أهلها، وعاثوا ثم ذهبوا إلى همذان فقتلُوا بها، وحلقوا لحى جماعة من الفقهاء، وعتوا ومضوا إلى نواحي أصبهان، فانتهبوا القُرى، وحاصروا البلد في جمع من أجناد داود بن محمد بن ملكشاه، فمرض الراشد مرضاً أشفى منه، بلغنا أن جماعة من العجم فراشين كانوا في خدمته، اتصلوا به هناك، فدخلوا عليه في رمضان سنة اثنتين وثلاثين فقتلوه بالسكاكين، وقُتلُوا بعده كلهم. وقيل: كان قد سقي سُمًّا، ثم دفن بالمدينة العتيقة في حجرة من بناء نظام الملك وجاء الخبر إلى عمّه المقتفي، فعقدوا له العزاء يوماً واحداً[6]ومع مجيء عهد المقتفي يبدأ عصر جديد للدولة العباسية حيث حرص على إعادة هيبة الخلفاء بذكاء ودهاء ونجح في ذلك إلى حد كبير، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

تاسعاً: مظاهر السيطرة السلجوقية على الخلافة:

على الرغم من أن السلاجقة دخلوا بغداد بدعوة من الخليفة العباسي القائم إلا إنهم عدوا أنفسهم

(1) النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ص 141.
(2) المصدر نفسه ص 143.
(3) سير أعلام النبلاء (569/19).
(4) المصدر نفسه (570/19).
(5) المصدر نفسه (570/19).
(6) المصدر نفسه (572/19).

فاتحين ومنقذين للخلافة العباسية التي هدد زوالها النفوذ الفاطمي، وأصبح الجيش السلجوقي هو جيش الخلافة [1]؛ لذا لم تختلف علاقة السلاجقة مع خلفاء بني العباس عن علاقة البويهيين بالخلافة، على الرغم من اختلاف النظرة الدينية للسلاجقة إلى الخلافة، فعلى اعترافهم بشرعية الخليفة العباسي باعتباره خليفة الله إلا أن هذا الأمر لم يغير من العلاقة بين السلاجقة والخلفاء العباسيين كثيراً وازداد نفوذ السلاجقة في العراق بعد أن قضى طغرل بك على حركة البساسيري، فسيطر على البلاد جميعاً وتنازل الخليفة لـه عن صلاحياته حيث فوض إليه الأمور، وانزوى في قصره يعيش على وارد بعض الإقطاعات التي خصصها لـه السلاجقة ومن مظاهر السيطرة السلجوقية على الخلافة:

1- نقل مقر الحكومة خارج بغداد: لم يتخذ سلاطين السلاجقة بغداد مقرا لحكمهم، بل جعلوا العراق إقليماً من أقاليم دولتهم الواسعة، وأرسلوا نواباً عسكريين ولم تعد بغداد مقر الحكومة في الإسلام [2]، فقد تنقل السلاجقة بين مرو وأصفهان وهمدان وأنابوا عنهم في حكم العراق موظفاً سلجوقياً يعرف بالعميد وهو نائب السلطان في بغداد وموظف آخر يعرف بالشحنة وهو مسؤول عن الأمن في بغداد، ووضعت تحت تصرفهما قوة من الجند السلجوقي [3].

2- الأصهار إلى البيت السلجوقي: ظهرت في عصر السيطرة السلجوقية مسألة أصهار السلاجقة إلى البيت العباسي وذلك لتوثيق علاقتهم بالخلفاء ولنيل الشرعية الدينية والسياسية وعلى الرغم من أن الخلفاء أرغموا على هذه المصاهرة إلا أنهم حاولوا من ورائها تحقيق مكاسب سياسية كبقائهم في الحكم وضمان سلامتهم واستمرار الدعم السلجوقي لهم، ففي سنة 453هـ طلب طغرل بك من الخليفة القائم ابنته، فدهش الخليفة وغضب غضباً شديداً [4]، إلا أن ضعف الخليفة وضغط السلطان وتهديده أجبره على الموافقة وتزوج الخلفاء من بنات السلاطين، فقد تزوج القائم من ابنة أخ السلطان طغرل بك [5].

3- تفويض السلطة: تنازل الخلفاء عن سلطاتهم واكتفوا باسم الخلافة واستقبال الملوك والسلاطين وتقديم العهود والخلع وفوضوا الأمور إلى السلاطين السلاجقة، ففي سنة (449هـ) فوض الخليفة القائم بأمر الله السلطان طغرل بك تفويضاً كاملاً بالسلطة، إذ قال عن طريق الترجمان: إن أمير المؤمنين حامد لسعيك شاكر لفضلك، آنس بقربك... وقد ولاك جميع ما ولاه الله تعالى من بلاده ورد إليك فيه مراعاة عباده فاتق الله فيما ولاك [6]. فوض الخليفة المقتدي بأمر الله السلطان ملكشاه سنة 479هـ، أمر البلاد والعباد [7] وبهذا التفويض يكون الخلفاء قد جردوا أنفسهم من كل نفوذ ومع هذا فقد أحصى السلاجقة على الخلفاء حركاتهم، ودسوا بينهم موظفين يقومون بمراقبتهم ورفع

(1) الجيش وتأثيراته في سياسية الدولة الإسلامية ص 243.
(2) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 243.
(3) المنتظم في (216/08).
(4) المنتظم (169/8 - 170).
(5) المصدر نفسه (322/8) (159/9 - 160)(85/10).
(6) المصدر نفسه 182/08) تاريخ آل سلجوق ص 16.
(7) تاريخ آل سلجوق ص 79، 80.

المطالعات عن تحركاتهم[1].

4- ولاية العهد: تدخل السلاجقة في تعيين ولي العهد، فبعد أن عين الخليفة المقتدى بالله ابنه الأكبر المستظهر بالله ولياً للعهد اعترض السلطان، ملكشاه، وأراد أن يكون جعفر ابن الخليفة من ابنة السلطان ملكشاه ولياً للعهد بدل المستظهر، ولما رفض المقتدي، قدم ملكشاه إلى بغداد سنة 485هـ عازماً على خلع الخليفة حيث كتب إليه، تخرج من بغداد وتسكن أي بلد شئت، فطلب المقتدى أن يمهله شهراً، فقال ملكشاه : ولا ساعة واحدة، وبعد وساطة تاج الملك وزير ملكشاه وافق على أن يؤخره عشرة أيام [2]، إلا أن وفاة السلطان فجأة أنقذت الخليفة [3]، ويروى أن السلطان ملكشاه فكر في نقل مركز الخلافة إلى أصفهان، إلا أن وفاته أماتت المحاولة [4] وعلى الرغم من أن السلاجقة تدخلوا في تعيين ولي عهد الخليفة إلا أنهم تجاوزوا موافقته أو حتى إعلام الخليفة في حالة تعيين السلاطين لمن يخلفهم، ففي سنة 458هـ أخذ السلطان ألب أرسلان العهود والمواثيق لولده ملكشاه وخلع على جميع الأمراء وأمرهم بإقامة الخطبة له في جميع البلاد الخاضعة لنفوذه[5].

5- شارات الخلافة: تظهر سلطة السلاطين ونوابهم على الخلافة من خلال استيلائهم على شاراتها وعدّوها حقاً من حقوقهم لا ينازعهم فيها أحد، فقد ذكرت أسماء السلاطين في خطبة الجمعة في بغداد [6]، وضربت أسماؤهم وألقابهم على السكة [7]. وحذا نواب السلاجقة حذو سلاطينهم، فشارك بعضهم الخليفة العباسي امتيازاته، فكانت الطبول تقرع على باب كوهرائين شحنة بغداد في أوقات الصلوات [8]، وقرعت الطبول أمام دار الوزير السلجوقي مؤيد الملك ابن نظام الملك أثناء إقامته في بغداد سنة 475هـ وعد ذلك من منكرات الأحداث [9].

6- الألقاب: تجاوز السلاطين السلاجقة الحد في اتخاذهم الألقاب التي تعكس قوتهم وسلطانهم من جهة وضعف الخلافة من جهة أخرى، فنقشت ألقابهم على السكة وكتبت في المخاطبات فعند دخول طغرل بك بغداد لقبه الخليفة القائم بلقب ركن الدولة يمين أمير المؤمنين [10]، ثم تلقب بلقب ملك المشرق والمغرب [11]، وتلقب السلطان ألب أرسلان بلقب عضد الدولة برهان أمير المؤمنين [12]، وبعد موقعة ملاذكرد سنة 463هـ التي انتصر فيها السلاجقة على الروم وأسروا إمبراطور

(1) المنتظم (62/9).
(2) المنتظم (62/9).
(3) تاريخ دولة آل سلجوق ص 71.
(4) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة ص 245.
(5) المصدر نفسه ص 245.
(6) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة ص 245.
(7) المصدر نفسه ص 245.
(8) المصدر نفسه ص 246.
(9) المصدر نفسه ص 246.
(10) راحة الصدور ص 169.
(11) المنتظم (181/8، 1983) أخبار الدولة السلجوقية ص 17، 18.
(12) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 246.

رومانوس ذكره الخليفة القائم بخطاب التهنئة (الولد السيد الأجل) المؤيد المنصور المظفر، السلطان الأعظم مالك العرب والعجم، سيد ملوك الأمم، ضياء الدين غياث المسلمين، ظهير الإيمان، كهف الأنام، عضد الدولة القاهرة، تاج الملة الباهرة، سلطان ديار المسلمين برهان أمير المؤمنين [1]، وعرف السلطان ملكشاه بن أرسلان بلقب السلطان معز الدنيا والدين قسيم أمير المؤمنين [2]، ثم لقب بلقب السلطان المعظم شاهنشاه ركن الإسلام معز الدنيا والدين ومولى العرب والعجم، سلطان أرض الله ركن الإسلام والمسلمين يمين أمير المؤمنين [3].

7- إعادة تشكيل الجيش: حرمت الخلافة العباسية خلال فترة السيطرة العسكرية على مقاليد الأمور فيها من القوة العسكرية التي تدين لها بالولاء، ومُنذ مقتل المتوكل أصبح الجند المتعددو الأجناس يدينون بولائهم إلى قادتهم أكثر من ولائهم للخليفة وهم لا يقاتلون عن دين ولا حمية ولا غيرة على سيادة الدولة، بل تتحكم في تصرفاتهم مصالحهم الشخصية من أموال وسيطرة ونفوذ، واستمر حال الخلافة على هذا الوضع بعد أن فقدت السيطرة على الجند الذين تنقلوا من قائد إلى آخر بحثاً عن الامتيازات؛ ولكي يتخلص الخليفة من تدخلاتهم وتجاوزاتهم وشغبهم المتواصل للمطالبة بالأموال استحدث منصب أمير الأمراء وهو القائد العام للجيش، ومن الطبيعي أن يكن لكل أمير من الأمراء جيش خاص يدين له بالولاء، ولفشل أمير الأمراء في السيطرة على الجيش، ازداد الاضطراب والفوضى فاستعان الخليفة بقوة البويهيين العسكرية، ولسيطرة البويهيين على الخلافة لم تعد الخلافة تملك جيشاً قائماً حتى بالشكل الذي عرفته سابقاً بعد أن أصبح الجيش البويهي هو جيش الخلافة وحاميها، وكذلك حذا السلاجقة حذو البويهيين بموقفهم من جيش الخلافة حيث لم يسمحوا للخليفة بتجنيد الجنود أو اتخاذ حرس خاص به وعدوا أنفسهم عسكر الخليفة [4]، ومما لا شك فيه أن افتقاد الخلافة لجيش خاص بها موال لها، كان أحد الأسباب التي آلت إلى ضعفها.. وخلق حالة من الفوضى ذهبت ضحيتها الخلافة ومؤسساتها [5]. ولما كان الجيش هو أحد أركان الدولة وممثلاً لهيبتها وسيادتها على رعاياها فقد سعى المتغلبون على حرمانها من أسباب قوتها لتسهل عليهم عملية الهيمنة عليها والتحكم بأمورها، وعليه نلاحظ أن بعض الخلفاء شرعوا في العمل لإعادة هيبة الخلافة وسلطتها، فكروا في تشكيل جيش الدولة الخاص بها، لتتمكن من خوض صراعها ضد المتغلبين عليها، وبما أن الجيش يشكل خطراً على سيطرة المتغلبين، فقد سعى السلاجقة إلى حرمان الخلافة من هذه القوة؛ لذا امتازت الفترة من 447هـ - 512هـ والتي حكم فيها ثلاثة من الخلفاء هم (القائم بأمر الله، والمقتدى لأمر الله، والمستظهر بالله) بالخضوع التام لسلاطين السلاجقة ونوابهم في بغداد حتى تقلد المسترشد بالله الخلافة سنة 512هـ [6]، فكان أول خليفة في هذا الفترة يتنبه لضرورة

(1) المنتظم (260/8 - 265).
(2) راحة الصدور ص 179.
(3) الأنباء في تاريخ الخلفاء ص 197.
(4) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 247.
(5) المصدر نفسه ص 247.
(6) المنتظم (197/9).

تكوين جيش خاص بالخلافة مستغلاً ضعف السلاجقة ونزاعهم على السلطنة بعد وفاة السلطان ملكشاه [1]، فبعد أن انفرد السلطان محمد بن ملكشاه بالحكم 498هـ - 511هـ نشب النزاع بين ورثته بعد وفاته، على الرغم من أن الخلافة سمحت بالخطبة لسلطانين في آن واحد [2]، غير أن الخليفة المسترشد حاول أن يستفيد من الصراع القائم بين العائلة السلجوقية على السلطنة، فاستعان في بداية الأمر بجيش السلطنة في بغداد وقوات بني عقيل ودعا إلى الجهاد لملاقاة دبيس بن صدقة المزيدي صاحب الحلة وتمكن من القضاء على نفوذه[3]، ثم استغنى عن الوزير السلجوقي وطلب نقل الشحنة من بغداد [4]، كما استطاع الوقوف بوجه السلطان طغرل ودبيس بن صدقة وانتصر عليهم وفي هذه الأثناء كان المسترشد قد أمر وزيره بإعادة ديوان الجند، وتسجيل العرب والأكراد والأتراك في الديوان وابتدأ في شراء المماليك الأتراك وأمر بتدريبهم على فنون القتال [5]وعقد محالفات مع أمراء الأطراف العربية والكردية، وتقرب من العامة وأمر بإعلان النفير العام للتجنيد [6]، حتى بلغ جيشه سنة 525هـ ثلاثين ألف مقاتل من أهل بغداد والسواد [7]، وتبين من كتاب السلطان سنجر الذي أرسله إلى السلطان محمود مدى خشية السلاجقة من هذا الجيش حين كتب إليه يقول: إن الخليفة قد عزم على أن يمكر بي وبك، فإذا اتفقتما عليَّ فرغ مني وعاد إليك،... ويجب بعد هذا أن تمضي إلى بغداد ومعك العساكر فتقبض على وزير الخليفة وتقتل الأكراد الذين دونهم وتأخذ النزل الذي قد عمله وجميع آلة السفر وتقول: أنا سيفك وخادمك[8]. وعندما علم المسترشد بقدوم السلطان محمود إلى بغداد عزم على مواجهته وقال: فوضنا أمورنا إلى آل سلجوق، فبغوا علينا، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون [9]. فاستعد الخليفة للمواجهة وعبر بالناس إلى الجانب الغربي من بغداد، ثم عبر إلى الجانب الشرقي حيث نزل السلاجقة وأرغمهم على الخروج من بغداد إلا أن الخليفة أذعن لشروط الصلح مع السلطان محمود بعد أن خذله أصحابه من الأمراء [10]، فسلم الخليفة وقبل بشروط في عدم تجهيز الجيوش وتدوين العسكر وما لبثت الأمور أن جاءت لصالح الخليفة، حيث خرج على السلطان محمود أخوه مسعود وعمه سنجر وعدد من الأمراء، فرحل السلطان محمود عن بغداد فبعث إليه المسترشد يقول لـه: إنك تعلم ما بيني وبينك من العهد واليمين وإني لا أخرج ولا أدون عسكراً، وإذا خرجت عاد العدو وملك الحلة وربما تجدد منه ما تعلم.

فكتب إليه السلطان محمود قائلاً: متى رحلت عن العراق وجدت لـه حركة، وخفت على نفسك

(1) الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير ص 41.
(2) السلطان محمود والسلطان سنجر، المنتظم (216/9).
(3) المنتظم (217/9، 218).
(4) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 248.
(5) المنتظم (254/9 - 255).
(6) المصدر نفسه (607/10).
(7) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 249.
(8) المنتظم (254/9 - 255).
(9) الجيس وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 249.
(10) المنتظم (3/10).

وعلى المسلمين وتجدد لي أمر مع أخي فلم أقدر على المجيء فقط نزلت عن اليمين التي بيننا، فمهما رأيت من المصلحة فأفعله [1] فشرع المسترشد بتعبئة الجند استعداداً لمد نفوذ الخلافة وخرج بنفسه يقود الجيش ويباشر القتال[2]، واستطاع أن يصد جيوش عماد الدين زنكي ودبيس بن صدقة الذين توجهوا إلى بغداد [3]، وحاصر الموصل وأخضع تكريت لسلطان الخلافة [4]، إلا أن صحوة الخلافة ونهضتها بعد طول سيطرة وتصميم على التخلص نهائياً من سيطرة السلاجقة، جعل المسترشد أكثر اندفاعاً دون أن يستكمل قوته ويستغل الظروف الملائمة وكان لإصراره على الخروج من بغداد لملاقاة السلطان مسعود دون أن يلتفت لنصيحة خاصته ومستشاريه في البقاء في بغداد [5]، أثر في تفكك جيش الخلافة بعد أن تخاذل بعض القادة الأتراك وانضموا إلى السلطان مسعود، فلم يبق مع الخليفة سوى من تبعه من أهل بغداد مما سهل على السلاجقة أسره واشترط عليه على مال يؤديه وأن لا يعود لجمع العساكر ولا يخرج من داره [6]، ثم قتل كما بينا سابقاً.

وتولى الخلافة بعد مقتل المسترشد ابنه أبو جعفر الملقب بالراشد [7]، وحدد السلطان مسعود مسؤوليات الخليفة بقوله: لا أريد أن يجلس إلا من لا يداخل نفسه في غير أمور الدين ولا يجند ولا يتخذ ولا يجمع علي ولا على أهل بيتي [8]؛ لذا اشترط على الخليفة الراشد أن لا يقوم بتجنيد الجند أو الخروج لحرب السلطان أو أحد أصحابه ومتى فعل ذلك فقد خلع نفسه [9]، وانتهى أمر الراشد إلى ما قد علمنا.

8- بداية انتعاش الخلافة العباسية: ولى السلاجقة أبا عبد الله محمد بن المستظهر الذي تلقب بالمقتفى لأمر الله 530هـ - 555هـ وحرص السلطان مسعود بعد قضائه على جيش الخلافة، أن يقضي على أسباب قوتها ونهوضها بوجه السيطرة السلجوقية، فاستولى على جميع ما كان في دار الخلافة من حلي وبغال وأثاث وذهب وفضة.. ولم يترك في الإصطبل الخاص سوى أربعة رؤوس من الخيل وثلاثة من البغال برسم الماء... وبايعوا على ألاَّ يكون عنده خيل ولا آلة سفر[10]، كما استخلف المقتفي على ألاَّ يشتري مملوكاً تركيا[11]، وأخذت عليها العهود بألاَّ يلجأ إلى تجنيد الجند، وأن يحسن السيرة ولا يتعرض لمحاربة أحد [12]، وضيقوا عليه وسلبوا أمواله حتى باع عقاره [1]،

(1) المنتظم (20/10).
(2) النتظم (45/10 - 50).
(3) مآثر الإفاقة (25/2، 26).
(4) الباهر لابن الأثير ص 47.
(5) ديل تاريخ دمشق لابن القلاسي ص 250 - 251.
(6) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 250.
(7) المنتظم (50/10).
(8) مفرج الكروب(61/1 - 62).
(9) ذيل تاريخ دمشق ص 257، 258.
(10) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلاميةص 251.
(11) تاريخ دولة آل سلجوق 217، الجيش وتأثيراته ص 252.
(12) مفرج الكروب (131/1).

كما سيطروا على دار الضرب في بغداد [2]، ولم يكن للخليفة المقتفي في بداية حكمه إلا الاسم، فنزاه يكتب إلى وزير السلطان مسعود بعد أن ضيق عليه بالأموال: وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها [3]، إلا أن المقتفي كان يرقب ما يدور من نزاع بين أفراد البيت السلجوقي على السلطنة ومحاولة استغلاله في محاولة لاسترجاع سلطاته [4].

وفي سنة 543هـ حاصر قسم من أمراء السلاجقة بغداد مخالفين أمر السلطان مسعود فهرب شحنتها [5]، فكتب المقتفي إلى السلطان مسعود يقول له: أما الشحنة الذي من قبلك فقد هرب هو وأمير الحاج إلى تكريت وقد أحاط العسكر بالبلد، وما يمكنني أن آخذ عسكراً لأجل العهد الذي بيننا، فدبر الآن، فكتب إليه : قد برئت ذمة أمير المؤمنين من العهد الذي بيننا، وقد أذنت لك أن تجند عسكراً وتحتاط لنفسك وللمسليمن فجند، وأظهر السرادقات والخيم وحضر الخنادق وسد العقود[6]. وحرض وزير الخليفة أبو المظفر يحيى بن هبيرة على تجنيد الأتراك والعامة في بغداد [7]، واستمر القتال بين عساكر السلاجقة، وعساكر بغداد وأهلها إلى أن تفرق المحاصرون وكفوا عن القتال[8]. وبموت السلطان مسعود سنة 547هـ ماتت معه سعادة البيت السلجوقي، فلم يقم له بعده راية يعتد بها ولا يلتفت إليها [9]، فسيطر الخليفة على ما كان للشحنة في بغداد بعد هربه إلى تكريت [10]. وجمع الرجال والعساكر وأكثر التجنيد وأعلن: أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ليدون ويجري على عادته في إقطاعه أبيح دمه وماله [11].

وكان لإعادة تشكيل الجيش العباسي أثر كبير في استعادة هيبة الخلافة وبسط سلطانها على الولايات المحيطة بها، ومناوأة أعدائها، فقد تمكن من تحرير الخلافة من الهيمنة الأجنبية بعد طول سيطرة وخضوع، وبسطت الخلافة سيطرتها على الحلة والكوفة وواسط والبصرة [12]، وتمكن الجيش من مقاومة الحصار السلجوقي لبغداد بقيادة محمد شاه السلجوقي في سنة 552هـ، وأفشل محاولة دخوله إلى المدينة بعد حصار دام ثلاثة أشهر [13]، وكان انسحابه نهاية لحكم السلاجقة في العراق فلم تنجح كل المحاولات التي قاموا بها بعد ذلك لدخول بغداد [14]، يقول ابن الأثير: الخليفة

(1) المنتظم (62/10).
(2) المصدر نفسه (66/10).
(3) المصدر نفسه (66/10، 119).
(4) مآثر الأنافة (37/2 - 38).
(5) المنتظم (132/10).
(6) المصدر نفسه (132/10).
(7) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلامية ص 253.
(8) المنتظم (132/10 - 133).
(9) راحة الصدور ص 254.
(10) الكامل في التاريخ نقلاً عن الجيش وتأثيراته ص 253.
(11) المنتظم (147/10) الجيش وتأثيراته ص 254.
(12) المنتظم (170/10 - 171).
(13) المصدر نفسه (170/10 - 171).
(14) الحياة السياسية في العراق في العراق في العصر العباسي الأخير ص 61.

المقتفي: هو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الديلم إلى الآن، وأول خليفة تمكن من الخلافة وحكم على عسكره وأصحابه من حيث تحكم المماليك على الخلفاء [1]. إن عودة هيبة الخلافة ونفوذها وقوتها من العوامل التي ساعدت الزنكيين في محاربة الصليبيين وتحقيق انتصارات كبيرة عليهم، كما سيأتي بيانه بإذن الله تعالى.

عاشراً: نهاية الدولة السلجوقية وزوالها:

زال سلطان السلاجقة في فارس بوفاة آخر سلاطينهم الأقوياء وهو السلطان سنجر عام 552هـ قال عنه الذهبي: هو السلطان ملك خراسان، معز الدين، سنجر ابن السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان ابن جغري بك بن ميكائيل بن سلجوق الغُزي التركي السلجوقي صاحب خراسان وغزنة وبعض ما وراء النهر كان وقوراً حيياً، كريماً سخياً، مشفقاً، ناصحاً لرعيته كثير الصفح، جلس على سرير الملك قريباً من ستين سنة [2].

كان من أعظم الملوك همّة، وأكثرهم عطاءً ذكر أنه اصطبح خمسة أيام متوالية ذهب بها في الجود كل مذهب، فبلغ ما وهب من العين سبع مائة ألف دينار سوى الخلع والخيل [3]، واجتمع له في خزائنه من الجوهر ألف وثلاثون رطلاً، ولم يسمع بمثل هذا، ولا بما يقاربه عند أحد من الملوك واجتمع أيضاً في جملة ثيابه ألف ديباج أطلس أعطاها في يوم واحد. وأخبر خازنه أنه اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم يسمع عن أحد من الأكاسرة أنه اجتمع له مثله [4]، ولم يزل في ازدياد إلى أن ظهرت عليه الغُزُّ في سنة 548هـ وهي وقعة مشهورة استشهد فيها الفقيه محمد بن يحيى، فكسروه وانحل نظام ملكه، وملكوا نيسابور، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأخذوا السلطان، وضربوا رقاب عدة من أمرائه، ثم قبّلوا الأرض، وقالوا: أنت سلطاننُا، وبقي معهم مثل جنديَّ يركب أكديشا ويجوع وقتاً، وأتوا به، فدخلوا معه مرو، فطلبها منه أميرهم بختيار إقطاعاً، فقال: كيف يصير هذا؟ هذه دار الملك. فصفى له وضحكوا، فنزل عن الملك، ودخل إلى خانقاه مَرْو، وعملت الغُزُّ ما لا تعمله الكفار من العظائم، وانضمت العساكر، فملَّكوا مملوك سنجر أيَبَه، وجرت مصائب على خراسان، وبقي في أسرهم ثلاث سنين وأربعة أشهر، ثم أفلت منهم، وعاد إلى خراسان[5] وزال بموته ملك بني سلجوق عن خراسان، استولى على أكثر مملكته خوارزم شاه أُتسِز بن محمد بن نوشتكين ومات أُتِسز قبل سنجر [6]، وقد ذكر أبو شامة في كتاب (الروضتين في أخبار الدولتين) النورية والصلاحية في حوادث سنة اثنتين وخمسين وفاة السلطان سنجر عقيب خلاصه من الشدة التي وقع فيها والأسر الذي حصل فيه وكان قد ورد كتابه في أواخر صفر من سنة 552هـ إلى نور الدين محمود زنكي بالتشوق

(1) الجيش وتأثيراته في سياسة الدولة الإسلاميةص 254.
(2) المصدر نفسه (363/20).
(3) المصدر نفسه (364/20).
(4) الشهب اللامعة ص 432.
(5) سير أعلام النبلاء (364/20).
(6) المصدر نفسه (365/20).

إليه والإحماد لخلاله، وما ينتهي إليه من جميل أفعاله، وإعلامه ما مَنَّ الله عليه من خلاصه من الشِّدة التي وقع فيها، والأسر الذي بُلي به في أيدي الأعداء الكفرة، من ملوك تركمان، بحيلة دبرها، وسياسة أحكمها وقرَّرها، بحيث عاد إلى منصبه من السلطنة المشهورة واجتماع العساكر المتفَّرقة عنه إليه [1]، ومع وفاة سنجر أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والتضعضع ثم الانهيار وكان ذلك في عهد الخليفة الناصر لدين الله، فقد استقر رأيه على الاستعانة بعلاء الدين تكش خواز مشاه ضد السلطان طغرل، فأرسل إلى خوازمشاه شاكياً من السلطان طغرل السلجوقي، ويطلب من خوازمشاه أن يساعده عليه، وأرفق الرسالة بمنشور يقضي بإقطاع خوازمشاه كل البلاد التي كانت آنذاك تحت نفوذ السلاجقة [2]، فلبى خوازمشاه رغبة الخليفة العباسي وسار على رأس جيشه لقتال السلطان طغرل، والتقى به قريباً من الري، وذلك بمنتصف عام 590هـ فدارت الدائرة على الجيش السلجوقي وقتل السلطان طغرل [3]، وهكذا زالت الدولة السلجوقية [4].

كانت سوء سياسة السلاجقة الداخلية وعدم إيجاد قانون لوراثة العرش يحترمه الجميع، كان من أهم العوامل التي أدت إلى انحلال دولتهم ثم زوالها، وبذلك وجدها الخوارزميون لقمة سهلة ولم يجدوا صعوبة في ابتلاعها، فورثوا ما كان للسلاجقة من سلطان، على أننا نلاحظ أن النزاع الذي قام بين الخلفاء العباسيين وبين البويهيين والسلاجقة، نلاحظ أن هذا النزاع قد استمر أيضاً بينهم وبين الخوارزميين، وقد استفحل النزاع بين الطرفين، ولم ينته إلا بانتهاء كل من الخوارزميين والخلافة العباسية بعد أن قضى المغول على القوتين الواحدة تلو الأخرى [5].

لقد تضافرت عوامل عديدة في سقوط السلطنة السلجوقية التي مهدت بدورها لسقوط الخلافة العباسية ومن هذه العوامل:

1- الصراع داخل البيت السلجوقي بين الأخوة والأعمام والأبناء والأحفاد.

2- تدخل النساء في شؤون الحكم.

3- إذكاء نار الفتنة بين الحكام السلاجقة من قبل بعض الأمراء والوزراء والأتابك.

4- ضعف الخلفاء العباسيين الذين تميزوا بالضعف أمام القوة العسكرية السلجوقية، فلم يتورعوا عن الاعتراف بشرعية كل من يجلس على عرش السلطنة السلجوقية والخطبة لكل منتصر قوي [6].

5- عجز الدولة السلجوقية عن توحيد بلاد الشام ومصر والعراق تحت راية الخلافة العباسية.

6- الانقسام الداخلي بين السلاجقة والذي وصل إلى المواجهة العسكرية المستمرة، وهذا ما

(1) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (359/1، 360).
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن نظام الوزارة في الدول العباسية ص 67.،
(3) دولة آل سلجوق ص 277 - 278.
(4) نظام الوزارة في الدولة العباسية ص 67.
(5) الشرق الإسلامي قبيل الغزو المغولي ص 60.
(6) السلاطين في المشرق العربي ص 50.

أنهك قوة السلاجقة حتى انهارت سلطنتهم في العراق.

7- المكر الباطني الخبيث بالدولة السلجوقية وتمثل ذلك في حملة التصفيات والمحاولات المستمرة لاغتيال سلاطين السلاجقة وزعمائهم وقاداتهم.

8- الغزو الصليبي القادم من وراء البحار وصراع الدولة السلجوقية مع جحافل الغزو الوحشية القادمة من أوروبا... وغير ذلك من الأسباب والعوامل. إلا أن سلاطين السلاجقة كانت لهم أعمال جليلة من أهمها:

أ- كان لهم دور في تأخير زوال الخلافة العباسية، حوالي قرنين من الزمان حيث أوشكت قبل مجيئهم على الانقراض في ظل سيطرة البويهيين الشيعة الروافض.

ب- منعت الدولة السلجوقية الدولة العبيدية في مصر من تحقيق أغراضها الهادفة إلى توحيد المشرق الإسلامي تحت الراية الباطنية العبيدية الفاطمية الرافضة.

ج- كانت الجهود التي بذلتها الدولة السلجوقية تمهيداً لتوحيد المشرق الإسلامي والذي تم على يد صلاح الدين الأيوبي وتحت راية الخلافة العباسية السنية [1].

د- قام السلاجقة بدور ملموس في النهوض بالمنطقة الخاضعة لهم علميّاً وإداريّاً ونشروا الأمن والاستقرار فيها.

هـ- وقفوا في وجه التحركات الصليبية من جانب الإمبراطورية البيزنطية، وقام نوابهم بمحاربة الجحافل الصليبية التي احتلت بيت المقدس وطرابلس والرها، وجزء من بلاد الشام وسواحلها ومن أبرز هؤلاء الأمراء عماد الدين زنكي.

و- رفعوا من شأن المذهب السنيّ وعلمائه في تلك المناطق [2].

فهذه نبذة موجزة عن سلاطين السلاجقة السنيين ودورهم في نصرة الإسلام، وإن كان للقوم أخطاء وملاحظات على سيرتهم ذكرنا شيئاً إلا أن من الظلم والزور والبهتان أن نطلق على أولئك الأبطال كلمة الشراذم كما فعل الأستاذ نجيب زبيب في الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس[3]، وفي المباحث القادمة سنتكلم عن مؤسسات الدولة المهمة ودور السلاجقة الحضاري وخصوصاً ما يتعلق بالمدارس النظامية وعلمائها وتأثيرها على عموم الأمة، ونجاحها في حسر المد الشيعي الرافضي الباطني الفاطمي وإحياء الأمة في دورها الجهادي ضد الصليبيين.

* * *

الفصل الثاني
نظام الوزارة العباسية في العهد السلجوقي

(1) السلاطين في المشرق العربي ص 51.

(2) قيام الدولة العثمانية ص 24.

(3) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس (10/3).